العصر الحديث، وإنهيار السلطة الدينية في أوروبا، دراسة تأريخية

The Modern age, and the Collapse of Religious Authority in Europe, Historical study

م.د. هدى حمه حسين عبد القادر

كلية العلوم الإسلامية، جامعة السليمانية

Huda Hama Hussein Abdal Qadir

College of Islamic Sciences، University of Sulaymaniyah

الكلمات المفتاحيه: الهيمنة الدينية على المجتمع – المشكلة في التقليد العلماني – النهضة الفكرية– الفلسفة الحديثة

Key Words: The Domination of Religion over Society – the problem in Secularism traditional - Intellectual Renaissance - Modern Philosophy.

ملخص البحث:

إن المسيحية في العصور الوسطى قد سيطرت على كل قطاعات المجتمع الأوروبي، فاستمرت حوالي ألف سنة، وحينها شكلت حياتَها الاجتماعية، والاقتصاديةَ، والسياسيةَ، والثقافيةَ، والفكريةَ، والعلميه.

لكن بسبب سياستها الاستبدادية وفرض تعاليمها على الناس، وإجرائِها لعقوبة الحرمان على مَن يقول، أو يفعل شيئاً، لا يتوافق مع تعاليمها، والمنع من الاكتشافات العلمية الجديدة، والتدخل في الشؤن السياسية للدولة، بدأت تفقد هيمنتها. ولاسيما بعد ما شهدته أوروبا في عصر النهضة والتنوير، الذي جاءت بعده تحولات جذرية في نواحي الحياة كلها، وخصوصا حياتها الدينية، وذلك بإصدار قرار التسامح الديني من قبل الحكومة، وتوسّعِ الدائرة العلمية، وتقدّم الصناعة، وهذا مِمّا ساعد على تجاوزها للعصور الوسطى، ودخولها في العصر الحديث.

ABSTRACT

Christianity dominated Europe in the Middle Ages، which lasted for about a thousand years، and from it shaped its social، economic، political، cultural، intellectual and scientific life.

But because of its dictatorial policy and imposing its teachings on the people، including implementing penalty of deprivation on those who say or do something that does not conform to its teachings، as well as its prevention of new scientific discoveries and developments، together with its interference in the political affairs of the state، it began to lose its domination. Especially after Europe went the intellectual Renaissance and Enlightenment age that followed extreme changes in all aspects of life، especially its religious life، by issuing a decree of religious tolerance by the government، as well as the expansion of the scientific circle، and the development of industry، which helped to transcend the Middle Ages and enter the modern age.

المقدمة

مشكلة البحث:

فَقَدَ الناسُ في المجتمعات الغربية ثِقتَهم بالعقائد الدينية، ولاسيّما بالمسيحية، ورجالها، وأصبحوا يعدون الدينَ من مظاهر التخلّف الاجتماعي، ومن أسباب الركود، والانحطاط في المجتمعات البشرية، كما يَرَون ضرورة ابتعاده عن السياسة، وشؤون الدولة، فهذه التصوّرات عن الدين قد أثارتْ اهتمامَنا، وشغلتْ أذهانَنا عن هذا السؤال: –لماذا هذه الأفكار الخاطئة حول الدين؟– وهذا ما دفعنا للبحث عن الأسباب لتلك الأفكار الشائعة في الغرب، ليساعدنا على فهم وجهة نظرهم.

أهداف البحث

1 . دراسة الدين الذي كان سائداً في المجتمع الأوروبي، وبيان آثاره التي تركتْهُ بين الأوروبيين.

2 . بيان العوامل التي أدت إلى نفور الناس من الدين، ورجاله، وابتعادهم عنه.

منهج البحث:

في دراستنا هذا سنَعْتَمِدُ على المنهج الوصفي التأريخي، وذلك بسرد لمحة سريعة عن الأحداث، ووصفها، مع مراعاة ترتيبها التأريخي، دون أن نخوض في تفاصيلها، وجزئياتها، لطول المدة التي هي محور بحثنا، وكثرة أحداثها، وشخصياتها، أما تستدعيه الحاجة إلى ذكره من الشخصيات، فاقتصرنا فيها على تعريفهم، بذكر المدة التي عاشوا فيها فقط.

هيكل البحث:

فقسمت بحثي هذا على مبحثين، المبحث الأول: يتكون من مطلبين، المطلب الأول: وضحت فيه الطبقات الاجتماعية، والنظام الاقطاعي باختصار، والمطلب الثاني: خصصته للفكرة الدينية، والأنظمة الاجتماعية المتابعة لها، أمّا المبحث الثاني: فهو أيضاً يشتمل على مطلبين، المطلب الأول: تحدّثتُ فيها عن النهضة الأوروبية، وأسبابها، ومجالاتها، والمطلب الثاني: جاء فيه بيانُ عصر التنوير، والانجازات التي حصلتْ عليها أوروبا في هذا العصر، وفي الختام، أتيتُ بأهم النتائج التي توصلتْ إليها دراستُنا.

المبحث الأول: لمحة سريعة عن العصور الوسطى.

المطلب الأول: الطبقات الاجتماعية والنظام الإقطاعي.

كانت المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى مكوّنة من ثلاث طبقات اجتماعية مختلفة: الطبقة الأولى: كانت طبقة رجال الدين، والثانية: طبقة النبلاء، والثالثة: طبقة عامّة الناس (الفلاحيين). ولكل طبقة من تلك الطبقات خصائصُ، ودورٌ ومكانةٌ في المجتمع، فأمّا الطبقة الأولى، والثانية فمن جهة السياسةُ كانتا تُمثلان الهيئة، أو المجموعة الحاكمة، ومن جهة مكانتُهما الاجتماعية فتمثلان القوة والسلطة، ومن الجهة الاقتصادية تمثلان الجماعة الغنية، أمّا طبقة الفلاحين فكانت طبقةَ الكادحين، والعاملين لأجل تأمين الحاجات.[1] و سنتكلم هنا عن كل طبقة من تلك الطبقات باختصار على الوجه الآتي:

الطبقة الأولى: طبقة رجال الدين.

هذه الطبقة في المجتمع كانت بمثابة الرأس، والعينين للجسم، فكانت الكنيسة تشرف على المجتمع، وتتحكم فيه، فكلّ أنظمة المجتمع، ومؤسساته التعليميّة والأحوال الشخصية والأمور الحربية، والسلطات التشريعية، والقضائية، والأمور الدينية كانت تحت إشراف الكنيسة، ورجالها، فكان البابا بمنزلة النائب عن الربّ في الأرض، له الزعامة، والسيادة في الأمور الدينية، والروحية، فكان له حقّ تكريس الإمبراطور على العرش، وإعطاء التشريع للسلطة، وكان يُحرم خروج الرعية عن سلطة الإمبراطور بشرط أن يبقى هو كخادم للكنيسة، ويطيع أمره، ويدفع عنه، وعن عقيدته، ومن جهة الممتلكاتُ كانت مدينةُ روما، وحواليها من أملاك الخاصة للبابوية.

فكانت هذه الطبقة لها أهمية كبيرة في المجتمع، حيث تُعد طاعتُها بمثابة طاعة الله، وكان الناس تماماً تحت سيطرة الكنيسة روحيًا، ومادياً، ومعنوياً، حيث لا يقوم أحد بكتابة العقد، أو التخلي عن الشيء، أو القيام بأيّ أمرٍ

مِن الأمور الدينية، أو الدُنيوية، إلا بعد استشارة رجال الدين، فكانت غالبيةُ الناس مُعتنقين بالديانة المسيحية، وكانت راسخةً في قلوبهم على درجة، سميت تلك العصور –خصوصاً أباكرُها– بعصر الإيمان. فبحسب الإحصاءات كان كل أربعين منزلا منهم له كنيسةٌ في إنجلترا في تلك العصور.

ومن الناحية الاجتماعية كانت الكنيسة تقوم بتقديم خدمات اجتماعية، وكان الفقراء يأخذون احتياجاتهم من الملكية العامة للمجتمع، وكذلك قامت الكنيسة بتشيد العديد من المستشفيات، وكلِّ ملزماتها، وبناء بيوتٍ للأيتام، والنُزُل الخاصة لاستضافة المسافرين، والأماكن الخاصة لمعالجة المرضى الجذامي، وبناء العديد من الطرق، والجسور، وقد خصّص ربعُ العشور –ممّا حصلت عليها الكنيسة من الأموال– لسد حاجات الفقراء ومساعدتهم.[2]

الثانية: طبقة النبلاء (المحاربون).

فهذه الطبقة كانت من الطبقات الشريفة في المجتمع، وهم الأشراف والأحرار، وقد سُمّوا أيضا بالفرسان؛ لسيادتهم على الأمور الحربية، فاتّخذت الحربُ شكلا انتاجياً، وصناعياً بالنسبة إليهم، حتى أصبحت هذه المهنة لا يمارسها إلّا رجالُ هذه الطبقة، فالفرسان، والسادة الإقطاعيون كانوا ملوكا في دوائر أقطاعهم.

الثالثة: طبقة الفلاحين (العاملون في الأرض) .

فهذه الطبقة كانت تتألف من أناس، هم بالأصل كانوا اصحاب قِطَع صغيرة من الأرض حتى القرن التاسع، فكثرةُ الحروب، والمنازعاتِ في الأوروبا، وتعدّي المحاربين على الناس دفعتْهم إلى الالتجاء إلى الفرسان، والتخلي عن أراضيهم، وحريتهم، فأصبحوا هم وأراضيهم مُلكا للنبلاء كي يضمنوا لهم الأمن والسلام. وقد عرفوا فيما بعدُ بالعبيد، وكانوا يشتغلون في أراضي سيّدهم، فكانت لهم حقوق خاصة، وواجباتُ التبعية، التي لاتعرف حدودًا ولا قيوداً حسب النظام الاقطاعي .[3]

النظام الاقطاعي

ساد النظام الإقطاعي على أوروبا في العصور الوسطى، وقد نشأ هذا النظام في أوروبا الغربية خلال القرن الثامن والتاسع الميلاديّ، وعُرِّف هذا النظام بتعريفات كثيرة، وخلاصة تلك التعريفات، هي"تجزأة الملكية والسيادة".

وهذا النظام يتكون من ثلاثة عناصر رئيسة؛ السيدُ، التابع أو العبد، وقطعة من الأرض (الإقطاع)، وهذا يقوم على أساس امتلاك الأراضي مشروطةً، ومقترنة بحقّ امتلاك السلطة للمالك على مَن يعيش في تلك الأراضي من الناس.

فالسيد كان –عادة– مِن طبقة النُبلاء، الذين كانوا يمتلكون الأراضي، وسكّانَها معا، فكان يعطي لمن تحت يديه مِن العبيد قطعةً من الأرض؛ ليعمل عليها، له ما عدا يومين، أو ثلاثة في أسبوع، يستطيع أن يعمل لنفسه، وعياله، ولا يملك هذا العبد حقَّ الانتقال من هذه الأراضي إلّا أن تباع، وتشتري، وحينئذ تنتقل الملكية إلى المالك الجديد، فاستمر هذا النظامُ إلى أن ظهرت الرأسمالية التجارية في القرن الحادي العشر، وتطورت في القرن الثالث عشر.[4]

وقد بلغت الرأسمالية أوْجَها في القرن السادس عشرة بعد اكتشافات الجغرافية، التي حصلت في أوروبا مثل اكتشاف البيرو، والمكسيك، وبعض أماكن أخرى، واكتشاف معادن الذهب، والفضة خصوصاً في أمريكا،

ووصولها إلى أوروبا، وفتح حدودها للتجارة مع الآخرين، فأصبحت تجارةً عالميةً، وكانت معظم هذه الكنوز في الصناعة، والتجارة أصبحت الرأسمالية المستفيد الأول من غناء أوروبا، وبالطبع فإنّ ارتفاع مكانة الرأسمالية في المجتمع أدت إلى ضعف النبلاء، ومكانتهم الاجتماعية، والاقتصادية، واضطرّهم أن يأمنوا أنفسهم ببيع أراضيهم الاقطاعية ممّا أدت إلى انهيار النظام الاقطاعي فيما بعد.

والمقصود من الرأسمالية هم الصناعيون، والتجار، وأصحاب السفن، ومديري المصارف، والبنوك الذين كانوا يعيشون في بلدان تجارية كبيرة. [5]

المطلب الثاني: الفكرة الدينية في العصور الوسطى، والأنظمة المتابعة لها.

إن لكل عصرٍ أو عصور سماتَه الخاصةَ التي يتميّز بها، فإذا كانت أوروبا قد سيطرتْ عليها الوثنيةُ، وبها تأثرتْ حياتُها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافيّة حتى القرن الرابع الميلادي، فإنّ العصور الوسطى قد تفردتْ بسيادة المسيحية عليها، واستمرتْ حوالي ألف سنة.

فالمسيحيةُ منذ بدايتها مرّتْ بظروف صعبة، واضطهادات شديدة من قبل الإمبراطورية الوثنية، لكن بسبب صبر أتباعها، وايمانهم استمرت، ورسخت في قلوب الناسِ، وانتشرت بسرعة فائقة في جميع أنحاء أوروبا، حتى وصل الأمرُ إلى نهاية الوثنية، وسيادة المسيحية، فمنذ ذاك العصر إعتنقت أوربا الديانة المسيحية وإن كانت هناك قلة قليلة من ديانات أخرى مثل اليهويدية، والبقايا الوثنية، ومنها شكلت جميع جوانب حياتها الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية والثقافية، وحتى حياتها العلمية والفلسفية [6]، وهذا ما نذكره إن شاء الله في هذا المطلب، وذلك في أربعة نقاط:

النقطة الأولى: الشعائر والطقوس المسيحية:

الديانة المسيحية كباقي الأديان السماوية الأخرى كانت لها معتقداتٌ، وشعائرٌ، وطقوس خاصة بها، وهي تعد رمزاً لمنح البركة الإلهية، فنحن هنا بطريقة موجزة نذكر بعضاً من أهم تلك الشعائر مثل عقيدة التعميد، ومراسم الكفارات، والصلاة، وبعض الشعائر الأخرى.

عقيدة التعميد.

كانت عقيدة التعميد في المسيحية قد أجريت لمحْوِ الخطيئة التي ارتكبها الإنسان قبل أن يولد، وذلك تبعا لإثم أبيه **آدم** –عليه السلام–؛ لذا فعند ولادة أيّ مولود فإنهم يقومون بإجراء عملية التعميد عليه، بحضور أحد القدّيسين، حيث يُطْلِق الأبوان اسمَ أحد القديسين على المولود الجديد على أن يكون هذا القديس شفيعَ الطفل في المستقبل، وحاميَه، وبعضُهم كانوا يؤخّرونها حتى يكبر الطفلُ، وقد اعتقد **القديس اغسطين** (354–430): أنّ مَن مات من الأطفال قبل عملية التعميد فقد يكون مصيره إلى النار.

مراسم الكفارات.

حسب عقيدة الكاثولوكية فإن الناس قد ولدوا آثمين؛ لذا فقد عرضت الكنيسةُ على الناس المُذنِبين أساليبَ، وطرقاً لتطهير أرواحهم من الذنوب، والخطايا، وكان يتمثل ذلك في إجراء المراسم –يسمى بمراسم الكفارة–، التي

يَعْتَرف فيها المذنبُ بذنوبه لأحد القِسِّيسِين؛ وذلك لأنّه قد ورد في إنجيل متى الآية 19 من الصحاح السادس عشر أن المسيح كان يغفر الخطايا، وانتقلتْ هذه الصلاحية من المسيح إلى المطارنة الأوليين عن طريق التوارث، ومن **بطرس** (يقال: هو أول باباوات روما) إلى الباباوات. وهذا التكفير كان قد يريح المُذنب من القلق، وثقلِ ذنوبه، ويرتاح ضميرُهُ، ومهمة القسّيس هو أن يصلح المذنبين خلقيا، وجسميا، ويُعطيهم الأملَ في صلاح حالهم، ولا يجوز له إفشاء ما يعترف به المذنبون، وكان يعطيهم قائمة الكفارات لتكفير ذنوبهم، التي كانت تحتوي على الصلاة، والصيام، والحج وإخراج الصدقات وغيرها من العبادات. [7]

الصلاة.

الصلوات على ما يبدو كانت على مراتب؛ لأن صلوات الكنائس كانت موجّه إلى الله: الأب أو روح القدس، أمّا صلوات الناس فكانت موجهة إلى عيسى ومريم –عليهما السلام– وكذلك القديسون. فبعض الناس كانوا يوجهون أحيانا صلواتهم إلى القديسين؛ لأنهم كانوا لا يجرؤون أن يوجهوا صلاتهم إلى الله خوفاً منه، ولأن عيسى أيضا أقرب من العرش كان إله عندهم، ولذا يتوسلون إلى قديس، كي يكون واسطتَهم عند المسيح، ويشهد عليهم بمقامهم في الجنة، فأصبح القديسين أخوة الناس في الأرض، يقربهم إلى السماء.[8]

عبادة الذخائر

كذلك انتشرت في الكنيسة عبادةُ الذخائر المقدسة، وهذه العبادةُ ترجع أصولها إلى الإيمان بأنّه عندما تصعد روحُ أحد القديسين إلى السماء، ويبقى جسده، أو قطعةٌ من جسده كأسنانه، أو عظامِه أو شيئاً ما يخصّه، كملابسه، أو شيئاً من ممتلكاته، يبقى رمزاً أبدياً لوجوده على الأرض؛ لأنها هي التي عاش فيها روحه، بحيث أصبحت هذه الذخائر لها قوةُ السحر عندهم، فبمجرد وضعها على مرض عضالٍ يَتِمُّ شفاؤه. وأصبحت هذه الذخائر موضعَ اهتمام جميع المسيحيين، وخاصة الحجاج منهم حيث يقومون بزيارتهم كعبادة.

وقد أدّتْ عبادة الذخائر هذه إلى انتشار الفساد، والحيل، وسرقة القساوسة، والرهبان حيث كان بعض الرهبان يقومون ببيع، وشراءِ جُثَثِ القديسين مقابل مبلغ كبير من المال، وأحياناً كانوا يخدعون المشتري، حيث يقوم بعض الرهبان ببيع عظام خنزير على أنّها عظام أحد القديسين، وكذلك يقال: إن اثنين من الرهبان قاما بشراء جثمان على أنّها سبسطيان (**قديس روماني** كانت الكنيسة تعده شهيداً) إلّا أنهما خُدعا؛ لأنّ الجثمان كان لأحد الأباطرة الرومان.[9]

صكوك الغفران

الغفران كان يتألف من ثلاث مراتب: الندم، الاعتراف، والتكفير الذي يكون إما صلاةً، أو صوما، أو حجاً إلى روما، فالباباوات كان لهم سلطة الغفران بناء على سلطة التي وصلت إليهم بالتوارث من تلاميذ المسيح، وهم عن المسيح نفسه، واستندوا على ذلك بقول المسيح: "مَن غفرتُم خطاياه نَغفر له، ومَن أمسكتم خطاياه أمسكت". وكان يتمّ ذلك بإعطاء المُذْنِبِ صكاً مِن ورق يكتب فيها الوعد بانتهاء المدة التي كان يجب أن يمكث في المطهر، وذلك يكون بدفع المذنب قدراً من المال للبابوية، وقد أصبح العمل فيما بعد عملا تجاريا بين الباباوات، فكان

يكفي للإنسان أن يدفع شيئا من المال؛ ليحصل على صكوك الغفران، وإن لم يمرَّ المُذْنِبُ بالمرحلتين قبله، وهما الندم والاعتراف.[10]

النقطة الثانية: العلم والفلسفة في العصور الوسطى:

خضعت الحياة الفكرية، والعلمية للفلسفة المدرسية في العصور الوسطى، فقد استندت الكنيسةُ في مجال العلم على أصول المسيحية التي جاءت فيها؛ و"لا حاجة لتعليم شيء من غير تعاليم الدينية؛ لأنّ الكتب المقدسة تتضمن كلّ ما يحتاج إليه الناس من أمور الدنيا والآخرة". وتفردت الكنيسةُ بالإشراف على شؤن العليمة التي كانت دينيّاً مَحضا في المدارس، والأديرة لإعداد رجال الدين، فهي قامت بوضع المنهج العلمي المسمّى بمنهج "الفنون الحرة السبع"، وكان هذا المنهج التقليدي مكوّناً من مجموعة ثلاثية كانت تضمّ النحو، والبلاغة، والمنطق، ورباعية وكانت تشمل الحساب، والهندسة، والفلك، والموسيقي، وكانت المعلومات التي تتعلق بالمجموعة الرباعيةِ سطحيةً غيرَ عميقة. [11]

وكذلك تأسست بعض المؤسسات التعليمية في المدارس والأديرة، وخاصة المهنية، يتمّ فيها تعليم التطريز، والحدادة من أجل تصنيع ملابس الكنيسة، وأنواع الزخرفة التي تحتاجها، وكذلك يتمّ فيها تعليم مباديء القراءة، والكتابة، ومباديء اللغة اللاتينية للذين عزموا على يكون رجلا دينيا أو موظفا حكوميا.[12]

فاقتصرت الكنيسة على تعليم ما في الكتاب المقدس فقط؛ لأنّ الكتاب المقدس معصوم عن الخطأ عندها، وبناء على هذا، فهي سيطرتْ على كلّ مجالات البحوث العلمية، وبما فيها الظواهر الطبيعية، وكلّ ما يدخل في مجال العلم، والفلسفة، فقضتْ باستبعاد علم الحيوان، وعلم طبقات الأرض، وعدت الكيمياءَ من فنون الشياطين، وردت الأمراض الجسمانية إلى الشيطان، أو غضب الله، حيث قال **أغسطين:** إن أمراض المسيحين مردّها إلي الشياطين، وكذا ردّ كلّ الظواهر الطبيعية ككسوف الشمس، وخسوف القمر، ونكبات الاجتماعية إلى الجن، وإن الشياطين تترقبهم دائما ليستغل الفرصة للإضرار بهم. [13]

وكانت من أحد الصفات التي تميّز بها عقل القرون الوسطى عن غيرها، وخاصة قبل القرن العاشر، هي أنها لم يكن فيها فرق بين عقل المفكر، وعقل عامّةِ الشعب، وذلك بسبب أنّ الكنيسة كانت تمنع كلّ الدراسات العلمية، والعقلية التى تلقن خارج الكنيسة؛ لأنّها تعد خطرَاً على تعاليم الكنيسة، وتعدها من عوامل انحراف الإنسان عن مهمته الأصل، والأساس التي خُلق من أجلها، وهي تأمين نجاته في الآخرة؛ لذا كانوا يركزون على تعليم كلّ ما يتعلّق بالعالم (أي بالله، وبالانسان، وبالحياة) في كنائسهم[14].

كذلك فمن أهمّ المسائل التي تسبّبتْ في ضجةً كبيرةً بين الفلاسفة، والعلماء النهضةُ، حيث وأصبحت أكبرَ حجة يستندوا عليها لتكذيب الكنيسة، هي القول بمركزية الأرض حيث يتعلّم رجال الكنيسة بأنّ الإنسان هو الغرض، والهدف الأساس في هذا الكون؛ لأنّ الأرض هي مركز الكونِ، والكواكبُ الأخرى تدور حولها، فبالتالي يكون الإنسان هو مركز الكون، وفق نظرية التقليدية **للارسطاطاليسيا**، فإن سيارات السبعةِ القمرُ، والزهرة، والعطارد، والمريخ، والمشتري، والزحل، والشمس كلّها تدور حول الأرض. [15]

أمّا بالنسبة للفلسفة فبظهور المسيحية كانت فلسفة اليونانية بدأت تتوقف عن التطور، ففي القرن السادس نشأت الفلسفة الجديدة في العصور الوسطى باسم الفلسفة المدرسية، لأنها هي التي كانت تدرس في المدارس، والجامعات في أوروبا، فحدد القديس **أغسطين** معنى الفلسفة بأنها هي الحكمة، والحكمة هي الكلمة، والكلمة هي الحياة التي قد تجسدتْ على صورة المسيح، والحياة نورٌ، وهذا النور لم يأتِ إلا بعد مجيء المسيحية؛ لذا فمحبّة الحكمة هي محبة النور، أو الكلمة، أي: محبة المسيح، وبناء على هذا، الفلسفة الحقيقية هي المسيحية. فتميّزت هذه المدرسة بجعل الفلسفة، والدين شيئاً واحداً، ولا تَعَارُضَ بينهما، وكانت تهتمّ بالكليات (اللاهوت، الفلسفة المسيحية، الدراسات الكنيسة، والقوانين الكنيسة)، ومن خصائص الفلسفة المدرسية في هذه المرحلة هي:

1. إن كلا من العقل والإيمان مكملان بعضهُما لبعض، وإن الإنسان يؤمن ليتعقّل.
2. إنها محدودة، وخاصة بفكرة الخلاص (ما يتعلق بالله وصفاته)، وبالإنسان من جهة روحُه، وعلاقته بالله، وبالطبيعة من جهة صلتُها بالله.
3. عدم الافتراق بين الفيلسوف، والمذهب الديني، فالفيلسوف يشتغل بوصفه مسيحياً، وفلسفته لابد أن تكون مسيحية.

هذا لا يعني أنّه لم يوجد أيّ جهد من قِبَلِ الناس، أو الفلاسفة لمعرفة الحقيقة في تلك العصور، لأنّه كان يوجد محاولات قليلة لكن غير مثمرة، فبعد القرن العاشر، وخصوصاً القرن الثاني عشر إذ ظهرت العقلانية في أوروبا إلى أن بلغت ذروتَها في عصر النهضة؛ لأنّه في القرن الثاني عشر أُدخلت في الفلسفة المدرسيةِ المعرفةَ بفلسفة اليونانية، وخاصة كتب **أرسطو وأفلاطون** عن طريق العرب واليهود والإغريق، وتمتاز هذه المرحلة بالنزاع حول موضوع التفرقة بين العقل والنقل. [16]

فكان من أهم شخصيات التي تأثرت بالفلسفة اليونانية، وخاصة نظريات **أرسطو وأفلاطون**، هو **بطرس أبيلارد ويوحنا ويكلف**، و**يوحنا هس**، و**أبيلارد** 1079–1142. فكان **أبيلارد** من أبرز رجال الجدل، والمنطق، وكان ذكيا جداً، ومناظراً شديدَ الوطأ، ورائدي حركةِ تحرير الفكر في القرن الثاني عشر، فهو يعد من أول المصلحين للكنيسة الذين وضعوا فلسفة الشك التي تشك في كلّ الشيء، حتّى في طبيعة المسيح، ومنهج **الديالكتيكي**، ويدعو بضرورة الرجوع إلى العقل، وكان لفلسفتهم أثرٌ بالغ في تحرير العقل الأوروبي من القيود القديمة.

ومن أشهر أقوالهم: "فلا داعي لوجود واسطة بين الله وعبده، وإذا ارتكب أحد ذنباً فلا حاجة لأن يكون اعترافه على يد رجل ديني"، فأقواله: مثل هذا قد كانت تقلّل من شأن الكنيسة، ورجالِها ممّا أدت إلى إثارة غضب الكنيسة، وحكمت عليه بالهرطقة مرتين. [17]

وبعد **أبيلارد** يعد كلًا مِنْ **يوحنا ويكلف**، **ويوحنا هس** مِن أهم الأشخاص الذين سعوا لإصلاح الكنيسة. **فيوحنا ويكلف** (1328– 1383) كان قِساً تلقي التعليم في جامعة الأكسفورد، وكتب مجموعة من الأبحاث حول "الملكية" والعلاقات بين السلطتين الكنيسة والزمنية، فهو يرى أنّ الله هو مالك السموات والأرض، وجعل ملكية الأرض حقاً لكل عباده الصالحين، وهو حقّ عام بينهم، وبناء على هذا كان يطالب الكنيسة بأن تتخلى عن معظم أملاكها، ويحتفظ بالجزء المحتاجة له، وهذا القدر المحتاج إليه على الملك أن يحدده، ورأى أن أحدَ أسباب افتقار

الدولة هي احتكار الكنيسة لمتلكات البلاد، وثروتها، ويعتقد أنّ أسلوب الحياة المسيحية يجب أن تؤخذ من الإنجيل نفسه، لا من رجال الدين، والكنيسة، وقام بترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى الإنجليزية؛ ليكون بين يدي كلّ مسيحي، وذلك في حين أن رجال الكنيسة قد تفرّدوا بقراء الإنجيل، وكان هذا من حقهم فقط، وليس لأحد غيرهم حقُ قرائته وتفسيره، وكان الكتب المقدسة مدونة باللغة اللاتينية الرسمية، التي لا يمكن لغالبية الناس أن يقرئها؛ لعدم معرفتهم للغة الرسمية، فترجمته للإنجيل باللغة العامية بين يدي كلّ إنسان مسيحي له أثر كبير في تمهيد حركة الإصلاح الديني. فعاقبه **غريغوريُ** البابا الحادي عشر(1329–1378)، وطلب مِن مَلِك إنجلترا **أدوارد** الثالث(1312–1377) بأن يطّرده من الجامعة، ويحبسه، ويحكم عليه بأنّه الزنديق.

أما **يوحنا هس** (1370–1415) فهو الذي حصل على إجازة اللاهوت سنة 1392م، وفيما بعد أخذ الماجيستر بجامعة براغ، فكان يهتمّ بدراسة تعاليم الإنجيل، والفلسفة اليونانية، ولاسيما تعاليم **أرسطو**، وكذلك تأثَّرَ تأثراً بالغاً بتعاليم **يوحنا ويكلف**، فهو كان متحمسا للإصلاح في الكنيسة، ورجال الدين، حيث قام بانتقادات شديدة من البابوية؛ لأنّ البابا كان يقوم بإصدار صكوك الغفران، وتوزيعها على كلّ من شارك في الحملة الصليبية التي أثارها هو ضدّ ملك نابلوني، فصرح **يوحنا هس** بأنّ كلّ تعاليم الكنيسة، وأوامر الباباوات التي تتعارض مع تعاليم المسيح مُلغاة، فوَقَّعَ البابا قرار الحرمان عليه، وبعد مدة قُبِض عليه، وأعدم حرقا بالنار. [18]

النقطة الثالثة : قوانيين الكنيسة

كانت قوانين الكنيسة تصاغ من العادات الدينية القديمة، وفقرات الكتاب المقدّس، وثقافةِ المجتمع، وآراء آباء الكنيسة، وقرارات الباباوات، ومجالسِ الكنيسة، وتشتمل تلك القوانين نواحي حياة الفرد الأوروبي كلها، من جهة قانونُ الزواجِ، والطلاقِ، والأراملِ، والوصايا، والدفنِ، وتنظيمِ الحروب، وانتهاكِ حرمة المعابد، والمتاجرةِ بالدين، والرتبِ الكهنوتية، والربا، وقواعدِ المدارس، والجامعات وغيرها، وكذلك حقّ استخدام الطردِ من الدين، والحرمان، والعلاقات بين المحاكم الدينية والدنيوية، وبين الدولة والكنيسة، وعدم سماح لأيّ محكمةٍ كنيسيةٍ أن تصدر الحكم بالدمِّ.

وكان الحرمان من أكثر الطرق التي تستخدمها الكنيسة، وهو كان نوعاً من الإرهاب الروحي، حيث كان المجرم يُحرم فيه من الاشتراك في طقوس الكنيسة، وهذا كان صعباً على نفسه؛ لأنه كان يفهم منه العذاب الدائمي إذا مات قبل العفو، وهذا النوع من الحرمان كان يسمى بالحرمان الأصغر. فأمّا الحرمان الأكبر فيمكن أن يقال: إن هذا هو النوع الذي كانت تتمسك به الكنيسة أكثرَ من الحرمان الأصغر، وهو الحرمان الذي يصدره المجلسُ الديني المكوّن من مراتب الأعلى من القساوسة، والمحكوم عليه لا يستطيع أن يقاضي، أو يرث، ويحرم عليه انعقاد أيِّ عقد قانوني، ويحرم على كلّ مسيحي أن يكلّمه، أو يؤاكله، ومن يفعله يُحكم عليه بالحرمان الأصغر، فكان لقرار الحرمان أثرٌ كبير في حفظ الكنيسة، ورجالها من كلّ أعدائها، وحتى أصدرته مرارا لمن كان يخرج من سيطرتها من الملوك والأباطرة. [19]

النقطة الرابعة: دور الكنيسة في الدولة

إن الأمبراطورية لم تعد المسيحيةَ في قرونها الأولى ديانة مستقلة، بل كانت تحسبها من الدين اليهودي، ولم تكن المسيحية موضع اهتمامها، حتى أنهم رفضوا المسيحيين أن يؤمنوا بأيّ دين آخر مع المسيحة، وكان حسب القوانين الوثنية، عليهم أن يؤمنوا بدين رسمي للبلد مع دينهم، ورفضوا عبادة الإمبراطور، وكذلك الخدمة في الجيش الروماني، واتّخذوا يوم الأحد كأول أيام الأسبوع؛ ليكون لها وصفة دينية، وكانوا يجتمعون سراً لمباشرة طقوسهم الدينيّة، فتصرفاتُهم هذه أصبحت موضعَ الشكِ، وعدهم الإمبراطورُ من فئات مهدّدة للإمبراطورية، وسلامتِها؛ لذا بدأت الحكومة بإظهار عداوتها للمعتنقين للمسيحية، وعدوها جرماً، وحكمت بمنع تجمعات المسيحيين، وقامت بكثير من الحملات الاضطهادية ضدّهم. أمّا المسيحيون فعلى الرغم من الصعوبات التي كانوا يعيشونها، فقرروا الصبر لأجل إيمانهم، فصبرُهم وشجاعتهم وضعهم موضع الإعجاب للكثيرين، ممّا أدى إلى دخولهم في هذا الدين الجديد.

ومحاولة بعض الأباطرة للسيطرة على المسحية، والمسيحيين بالعنف، والشدة أصيبت بالفشل، ولم يقدروا على إنهائها، بل على العكس جعلوهم أكثر قوة وانتشارا، فاستمرّ هذا الوضع للمسيحين إلى عهد الإمبراطور **قُسْطَنْتِين** (272–337). فلما اعتلّ **قُسْطَنْتِين** العرش، ورأي تلك الاضطهادات الشديدة، وإصرار المسحين على عقيدتهم قرّر إعطاء كلّ مواطنٍ حريّةَ العقيدة، والدين بشرط أن يظهروا الاحترم لقوانين الدولة، فبعد إعلانه لمرسوم ميلان، واعترافه للمسيحية كدين معترف به في أوروبا كباقي الأديان، رجعت السلامة، والهدوء إلى الكنيسة، وقام **قُسْطَنْتِين** بنقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنتنية التي بناها هو جديداً، فترك **قُسْطَنْتِين** للعاصمة أدّى إلى استقلال الكنيسة في روما، وأصبحت القوة الفعالة في المجتمع الأوروبي. [20]

دخلت المسيحية مرحلة جديدة في حياتها الدينية والدنيوية، على الرغم من وجود الاختلافات المذهبية القائمة بين رجال الكنيسة، وانقسامهم إلى فرقتين مختلفتين دينياً، وسياسياً بسبب مسائل العقيدية مثل "طبيعة المسيح"، وافتراق الكنيسة الشرقية –في القسطنتنية المبنية على المذهب الأريوسية، التي كانت تعطي تعاليمها مستندة على العقل والمنطق– عن الكنيسة الغربية في روما المؤسسة على المذهب الأثناسوسية التي كانت تعاليمها تعتمد على العواطف، فالمسيحية كانت تزدهر خصوصاً في الجهة الغربية التي كانت تمتَّعَتْ باسقلالها السياسية، وشؤنها الدينية.

وبعد توسع المسيحية، وكثرة الكنائس في المدن الأوروبية، بدأت الكنيسة بإيجاد تنظيم إداري للكنيسة يشبه النظام الإداري الإمبراطوري، فبعد موت قسطنتين تولى أبناؤه العرش، وكان لهم ولاءٌ للمسيحية، فأصبحت المسيحيةُ في عهدهم ديانةً رسمية للدولة الإمبراطورية؛ لأن الكنيسة أصبحت راعية لديانة الدولة الرسمية، فكانت تحصل على امتيازات خاصة من الحكومة، وكانت معفوّة من دفع الضرائب، وكان الناس من الاثرياء يعطون صدقاتهم، وهباتهم من الأموال، والأراضي للكنيسة، ممّا أدى إلى قوة الكنيسة مادياً، ونفوذِ الأساقفة في أماكنهم بسبب مكانتهم الدينية والمادية، ممّا جمعوه من الصدقات والهدايا، فتحوّلت الكنيسة، وإدارتها الواسعة في أوروبا،

وخاصة في غربها من منظمة ديموقراطية بسيطة إلى هيئة وراثية ذات إدارة بيروقراطية مركزة، وقاموا بإنشأة النظام البابوي. [21] والمراد بالبابوية سلطة الخلافة الرسولية، وما يترتب عليها من سيادة الدين على الدولة. [22]

ارتفع شأن الكنيسة سياسياً، واقتصادياً بعد القرن السادس فصاعداً، إلّا أنّها قد تدمّرت دينياً في الداخل، حيث أصبح أكبرُ همِّ رجالِها جمعَ الأموال، وأخذ المناصب الإدارية، والمعاملة بالرشوة، والتخلّي عن التسامح، ونشر الفساد فيها، فالحروب الداخلية، والحروب الصليبيّة مع المسلمين أثرتْ على البابوية، وأدّى إلى إهمال الباباوات أمورهم الدينية، والانشغال بالأمور الدنيوية، ممّا أعطت للسلطة الزمنية فرصةَ التدخّل في شؤن الكنيسة، واختيار أشخاص من رجال الدين للمناصب المهة، الذين يعملون لمصلحة الدولة، وبهذا خرج رجال الدين في سلطة البابا؛ ليكونوا أقطاعيين في أماكنهم، وأصبح اختيار البابا للكنائس قد تدخل فيه الحكام، والنبلاء، ورجال الدين، وعامة الناس حتى وصل الأمر إلى انتخاب البابا بعيداً عن كلّ الأصول الدينية، وكذلك انتشرت ظاهرة زواج القسيسين، والتقليد العلماني، الذي كان قيام الحكام الزمنيين هو تعين رجال الدين في مناصبهم.

فرأى الكثير من علماء الدين ضرورة القيام بالإصلاح في الكنيسة ورجالها، فقام البابا **نيقولا** الأول (800–867) بعقد مجمعٍ دينيٍّ في روما، ووضع فيها جملة من المبادئ، والقوانين لاختيار البابا، وأعطى حقّ الاختيار لرجال الدين في كنيسة روما نفسها، وطرد كلّ من الباباوات، ورجال الدين الذين لم يتم تعيينهم عن طريق قانون الكنيسة في مناصبهم، وجاء بعده البابا **جريجوري** السابع (1073–1085) فقام بعقد مجمع يهدف فيه إلى الإصلاح في الكنيسة، وتحريرها من المشاكل الداخلية التي تعاني منها، فتمّ فيه تحريم بيع مناصب رجال الدين، وتحريم إلقاء المواعظ على المتزوّجين منهم، وسدّ طرق الرشوة، والقضاء عليها، والأمر الذي كان يسعى إليه هو منع إخضاع الكنيسة للسلطة الزمنية، ونادى بسموّ ورفعة البابوية على الإمبراطورية.

وأهم المباديء التي تمّ التوافق عليها في ذلك المجمع هي: إن الكنيسة هي سلطة لا تسمو عليها أيّ سلطة، إنّ سلطة البابا هي الوحيدة التي تسمى بالسلطة العالمية، وللبابا حقّ عزل الأباطرة، كلّ قرار صادر من البابا ليس لأحد أن يُلغيه، وليس لأحد أن يحكم عليه، وله الحقُّ في إلغاء القرارات الصادرة عن غيره. [23]

فأصبحت مسألة التقليد العلماني الذي رفضه **البابا جريجوري** السابع من أهمّ المسائل التي تسبّبت في النزاعَ العنيف بين البابوية، والإمبراطورية، التي كانت لها حقّ الاختيار، وتعيين البابا، وتشغيل الأساقفة الشاغرة، وتعيين مناصب الكنيسة. إذ يدعي كلّ من الأمبراطور والبابا الوحيد الذي له حقّ التعيين، ويمكن أن ترجع بداية هذه الخلافات بين السلطة الزمنية، والدينية إلى نصف الثاني من القرن الحادي عشر، بعد أن تولى **هنري** الرابع (1553–1610) العرشَ، وهو كان صغيراً وتحت وصاية أمه. فقام رئيس الأساقفة **كولونيا** باخططافه، ووضعه تحت وصايته، وأصبحت السلطة تحت يديه، وبهذا كان يحكم على كلّ من الكنيسة، والدولة جميعاً في آن واحد، فلما بلغ **الهنري** خمسة عشر سنة تولى العرش، وبخلاف ما كان البابا يتوقعه، كان حاكما مستبداً، وعدواً للكنيسة، وفي ذلك الوقت كان البابا **جريجوري** السابع قد اعتلى الكرسي البابوية، ووافق **هنري** على هذا الاختيار، وبعد مدة من حكم البابا **جريجوري**، وبدئه بالإصلاح في الكنيسة، ومحاولته للهيمنة على الدولة، وإصدره لقراره

ضدّ التقليد العلماني، الذي أثار غضب الإمبراطور، وجميع الملوك الغرب، الذي كان يقتضي بعدم حقّ التدخل الإمبراطور في اختيار البابا، وهذا كان معناه قلب نظام الامبراطورية رأساً على العقب في نظره.

فتصاعد الصراع بينهما، وبلغ إلى ذروته لمّا عيّن **الهنري** أسقفا جديدة في الميلان، فأرسل البابا رسالة باللهجة الشديدة إلى الملك، وأنذره فيها بالعزل، والويل إن لم يخضع لرأي البابوية، فقرر **الهنري** ببطلان انتخاب **جريجوري** السابع، وعزله من منصبه رداً عليه، ممّا دفع البابا أن يعقد مجلسا في مجمع الفاتيكان، وقرر توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور، وعزله من منصبه، وقرّر بتبرئة جميع الرعايا عن إطاعته، ودعا إلى عصيانه، فاضطر **الهنري** لانقاذ عرشه إن يرجع عن قراره، ويستسلم، ويطلب العفو، والسماح من البابا باكيا، ويركعا أمامه، ويخضع لطلبه دون أيّ شرط، ولا قيد، فقبل البابا اعتذاره، وسمح له بعد أن كان جعله ينتظر ثلاثة أيام تحت البرد القاصي أمام قلعة كانوسا، وبعد أن فرض عليه شروطاً قاسيةً، وزوّده بالنصائح، فستمرّ هذا النزاع بين البابوية والإمبراطورية لثلاثة القرون من القرن الحادي عشر إلي القرن الثالث عشر، حيث كرّر في تلك العصور إصدار الباباوات قرار الحرمان ضدّ الأباطرة مراراً، وعزلهم من مناصبهم، وفي المقابل كانت الامبراطورية تحاول، وتأخذ كلَّ الفرصة لتضرب بها الكنيسة، ورجالَ الدين، وتبعدهم عن السياسة وشؤن الدنيوية. [24] فانتقلت هذه الخلافات، والنزاعات إلى مَن بعدهم من الباباوات، والأباطرة، حيث حدث ذلك في عهد كلّ من **الهنري** الخامس(1386–1422) والبابا **كالكستن** الثاني، **وفردريك باربا روسا**(1122–1190) و**فردريك** الثاني (1194–1250)والبابا **انوسنت**(1160– 1216) بأشكال مختلفة ونتائج متفاوتة. [25]

فأصبح البابا في القرن الثالث عشر بمثابة ملك عظيم، وبلغت سلطة البابوية ذروتها، وكان الملوك تحت رقابة البابا، وينفذون أوامره خوفاً لتعرضهم لعقوبة الحرمان، وخاصةً في عهد البابا **انوسنت** الثالث الذي فرض إرادته على أعظم الحكام الاوروبية في عصره. وهذه السلطة استمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، لكن بدأت تفقد هيمنتها الروحية، ونفوذها السياسية نتيجة لأزمات التي تعرضت للبابوية في القرن الرابع عشر، وذلك بسبب وجود الحروب الصليبية، وحركات الدينية الاصلاحية، وتقدم المجتمع الأوروبي اقتصاديا وعلميا وثقافيا، وظهور التيارات القومية التي تسببّت انتشار الانتماءات القومية بدلا من الانتماءات الدينية. [26]

المبحث الثاني : مظاهر العصر الحديث.

المطلب الأول: عصر النهضة الأوروبية، وأسبابها، ومجالاتها:

حسب المصادر التأريخية بدأت عصر النهضة في منتصف القرن الرابع عشر في إيطاليا، وبلغت أوجها في القرن السادس عشر، واستمرت حتى بداية القرن السابع عشر، وظهور **ديكارت** ووثورة **الغاليلية**، أي: أنه استمر حوالي ثلاثة قرون، فكان عصر النهضة من العصور المتفائلة التي لم يسبق لها التأريخ البشري مثلها، يقول **ايراسموس:** "ما هذا القرن العظيم ينفتح أمامنا، كم أتمنى لواني أعود إلى الشباب". [27] فقد شهدت هذه القرون الثلاثة سلسة من الأحداث التي تسببت تغيرات جوهرية في أوروبا التي هي:

أولاً: ظهور الحركة الإنسانية.

ثانياً: اكتشافات الجغرافية التي اكتسبت أوروبا تقدماً في الاقتصاد.

ثالثاً: حركة الإصلاح الديني.

الأول: ظهور الحركة الإنسانية.

إنّ النزعة الإنسانية في بداية الأمر ظهرتْ في إيطاليا في منتصف القرن الرابع عشر، ومنها امتدّت، وانتشرت إلى بقية بلدان الأوروبا، وكان يُقصد بها مجموعةً من العلوم المترابطة التي تشمل علم النحو، والبلاغة، والشعر، والتأريخ، والأخلاق، واستكشاف الثقافتين: اليونانية والرومانية من خلال مخطوطاتهما، والتي جعلت من الإنسان محورها الأساسي، وهي كانت حركة مطالبة باحترام الكرامة الإنسانية، وإعطاء الأفراد حقوقهم، وكانت ترفض كلَّ إشكالات الاغتراب، والاضطهاد ضدّ الإنسانية، فهي كانت متكوّنة من المثقفين الذين تأثّروا بالأدب، والحضارة اليونانية، وأكدّوا على ضرورة الرجوع إلى الوراء، والأخذ بفلسفة الكلاسيكيين من الإغريق والرومان، آملاً لتغير حياتهم، وتحرير عقل الإنسان من الأفكار المتشائمة حول العالم عن طريق الفهم، وترجمة الكتب القديمة، ونشرها بلغات عامية أوروبية، كي يكون متداولاً، وسهلا للقراءة بين عامة الناس، واعتقدوا أنّ التفوّق في الكلاسيكيات يجعلك أكثر إنسانية، ومؤهلاً لحلّ المشاكل التي يواجهها الفردُ في بيئته الاجتماعية، وكانوا يطلقوان على أنفسهم الإنسانيين.[28]

إنّ أبرز من المفكرين الإنسانيين كان **دانتي وبيترارك**، (1034–1374) و**ايرازموس** وأشهرهم في القرن الخامس عشر **هوبيك الميراوندلي** الذي يقول: "قرأت في كتب العرب أنّه لا يمكننا أن نرى شيئاً، أجمل وأروع من الإنسان"[29] فدانتي كان أوّل من وضع الأدب القومي في إيطاليا، واشتهر بأبي الشعر، أو أبي الأدب الإيطالي، فقد بدأت الثورة الأدبية في إيطاليا بناء على أفكاره، حيث كان يقول: " إنّ العامية أعظمُ نبلاء، من جهة أنها الأسبق استعمالا، وأكثر استخداما، ولأنّها لغةُ طبيعيةٍ غير مصطنعة، كما هي الحال في اللغة اللاتينة، وأنشأت من البلاغة العامية بلاغةٌ فصحى، وجعلها أساس اللغة الإيطالية كلغة قومية ممّا استغنى الإيطاليون عن اللاتينية، فأفكار **دانتي** لم يقف عند اللغة، والأدب فحسب، بل تعدّى إلى السياسة أيضاً حيث صدر كتابه "الحكم الملكي"، وبيّن فيها كيفية تلقّي المَلِكِ السلطةَ، حيث كان يقول: إنّ الملك الزمني إنّما يستمدّ سلطته من الله سلطةً مباشرة، لا من سلطة الباباوات، بوصفه أنّه أداة الله بين البشر؛ ليتحقّق بينهم السلامةُ، والعدالةُ، والحرية، وهذا لا يمكن تحقيقه إلّا بانفراد حاكم أعلى بالسلطة الدنيوية، وليس في ظلّ إنداد متعددين. وكان يرى أن النظام الملكي القائم على السلطان الحاكم المتفرد بسلطته، هو النظام الوحيد الأمثل لحكم الشعوب، وردّ على الكنيسة التي كانت تقول بأنّ الإمبراطورية الرومانية إنّما انهارت بغضب الله عليها بسبب ظلمهم، وجورهم، بقوله: إن هذه الإمبراطورية لم تكن فيها ضلال، ولا فساد، بل كان عصرٌ ازدهر فيها الإنسان وحضارته، وإنما انشاتها العناية الإلهية بنور الإيمان والعقل. وردّ عليهم أيضاً بأن المسيح قال لقاضيه الروماني عندما اتهمه بأنه يدعي الملك: "مملكتي ليست من هذا العالم، فلو كانت مملكتي من هذا العلم لقاتل خدامي، حتى لا أسلم لليهود" وهذا يدلّ على أنّ الدين شيءٌ، والدولة شيء آخر، وادّعى بأنّ سلطة الدولة على الدين ثابتة بالنص، فعلى هذا يجب أن تخضع

الكنيسة لسلطة الزمنية، وليست العكسَ، فبهذا هو كان قد وضع أساس الدولة الحديثة على القومية، والعلمانية، وتميّز الدين عن الدولة، وأدّى تطور أفكاره ورجال ما بعده إلى انهيار الدولة الدينية العالمية.

أمّا **ايراسموس** الذي يسمى بزعيم النهضة الأوروبية فقد انتشرت الحركةُ الإنسانية على يده في جميع أنحاء أوروبا، فدرس الدين في المدارس اللاهوتية في شبابه، وبعد سفره إلى إيطاليا تأثّر كثيرا بالحركة الإنسانية، والفلسفة اليونانية، فكان يعتقد أنّ الرسالة الإلهية قد تشوّه، وأدخلت فيها الأخطاء اللغوية عن طريق النسخ، والترجمة، فكان يريد تطهير تلك الأخطاء التي توسطت بين الكلام الالهي، والبشر. فبهذا وضع الكتاب المقدس موضع الشكّ، وأدخل المنهجية النقدية في العلوم الدينية لأول المرة، فأصبح المركز تماما على التجديد، والإصلاح في الدين، ويرى الإصلاح هو المشكلة، أو القضية المركزية في عصره. ويرى أنّه من الممكن لعصره أن ينتفع بحكمة القدماء، إذا استطاع أن يهتدي إلى جوهر الفكر المسيحي، والوثني على حدّ السواء، وإنّ جوهر المسيحي لا يؤدي إلى قمع الإنسان، وتحطيمه كما يعتقد اللاهوتيون، ورجال الدين، بل أنّه يدعو إلى مجدّ الإنسان وتعظيمه. [30]

فكان الإنسانيون متفائلون جداً بالإنسان والحياة، فكأنّهم ولدوا من جديد، أو استيقظوا من نوم عميق، وينظرون إلى جمال العالم، ويصيبون بالدهشة لكل ما يرونه، وينظرون إلى الإنسان بأنّه هو الكائن العظيم، والمخلوق المتميّز الذي هو مركز الأرض، والذي يتمثّل إرادة الله في الأرض بفضل عقله، ونعمة الله. [31] فأثار ذلك الإيجابيةَ لعقول الناس، ومالوا إلى قراءة الكتب، ولاسيما المثقفون، وطلاب المدارس، وبدؤوا بقراءة، وتحليل ومناقشة الكتب البشرية، التي كتبها الوثنيون من الإغريق، واللاتين؛ ولهذا نجد التقدمَ في هذا العصرِ الرجوعَ إلى الوراء، والانتماءَ إلى كتب الفلاسفة القديمة **كأرسطو**. فسيطر الحب، وإثبات الذات على الإنسان النهضوي، وخاصة في إيطاليا الكبرياء، حيث يرغب كلٌّ أن يعيش، ويجرب كافة أنواع الحياة، فكان يريد أن يكون شاعراً، وفيلسوفاً، وإخلاقياً، وفَناناً، وسياسيا، وبطلا، وعاشقاً وعالما، فعلى الرغم من المشكلات، والصعوبات التي كانت يواجهها هذا التيار من قبل البابوية، كان يحاول بجدية أن ينشر طريقَه من خلال الفصول الدراسية؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ نجاح هذه الحركة يتحقّق بإدخال التعليم الإنساني في الفصول الدراسية، ووضع مناهج ومهارات جديدة لها. [32]

فكان لاختراع آلة الطباعة دورٌ هامٌ في انتشار الإنسانية في جميع أنحاء أوروبا، فأخذتْ هذه الآلة طابعا تجارياً، وعملا مربحاً، مما جعل التجارَ والصناعَ يهتمون بِصنعها، والتجارة بها؛ ولهذا كانت متداولة في بعض البلاد الأوروبية، وإن كانت عددها قليلاً آنذاك، فبفضلها كانت الكتبُ تنشر بسرعة فائقة، وازداد عددُ القراء في مجالات متنوعة، التي تخرجها المطابعُ، بسبب سهولة الحصول عليها، وانخفاض سعرها، وانتشارها باللغات العامية الأروبية مثل الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية والإنجليزية بدلاً من اللغة اللاتينية، واليونانية، ممّا أتاحت فرصةَ القراءة لكثيرة مِن الذين كانوا لا يعرفون اللغة الرسمية اللاتينية. فأصبحت هذه الحركةُ مصدراً لكل الحركات، والنهضات الدينية، والعلمية، والسياسية، والثقافية في أوروبا .[33]

وأمّا ما يتعلق بالدين والكنيسة فالنهضَوِيُّون على الرغم من تأثرهم بالفكر والأدب اليوناني، والشكوك الذي انبث بين الناس، فإن جميعَهم تقريبا كانوا مؤمنيين بعمق، وأوفياءَ للمسيحية، فلم يكن هناك النزعةُ اللادينية؛ لأن الطابع الفكري للعصر لم يسمح لذلك، إلّا أنّهم أرادوا تهذيب وتطهير الكتاب المقدس من الخرافات، والأساطير التي علقوها به، وأكدوا على ضرورة تطبيق القواعد الانتقادية على الكتاب المقدس، والنصوص الدينية التي طبقوها على النصوص البشرية. وأمّا فنوع الإيمانِ النهضويّ كان مختلفا كثيرا عمّا كان عليه الناس في العصور الوسطى، في حين أن الإيمان في تلك العصور كان يتهم الإنسان بخطيئته الأولى، ويسلب منه إرادته، ويلقنه بأن الدنيا فانية وزائلة، وأن الحياة التي تستحق أن يسعى لأجلها هي حياة الآخرة، وجعل الناس يتشاءمون بالدنيا، وما فيها، فإن إيمان النهضة كان على عكس ذلك تماما، وكان يجعل من صفات المؤمن المتّقي الجهد، والسعي لتحقيق حاجته، والذي لا يعرف العطالة الذاتية، والاستسلام والتواكل، لأنه هو حرّ، ومسئول، وصاحب الإرادة القوية، فكان يبثّ التفاؤل بحياة الدنيا، وجعل الاحترام، والكرامة الإنسانية، والسعادة، والحرية القيم الكبرى للأخلاق الفردية. [34]

الثاني: الاكتشافات الجغرافية في أوروبا.

فكانت الاكتشافات الجغرافية التي حدثت في أوروبا في القرن الخامس عشر دوراً كبير في توسع أوروبا معرفيا، وسياسيا واقتصاديا. فكانت أوروبا قبل تلك الاكتشافات منغلقةً على نفسها، وغير متفتحة على العالم، فلم تكن تلك الاكتشافات مستهدفة من قبل أوروبيين وإنما كانت حاجاتهم الاقتصادية، ودوافعهم الدينية هي التي دفعتهم إلى تلك الخطوة العظيمة التي تغيرت حياتهم نحو الأفضل في ظلها. فكانت هناك أسباب دفعت أوروبا نحو هذه الحركة.

الأول: كان العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي أدت الى انفتاح أوروبا نحو العالم، حيث كانت أوروبا تحتاج إلى المواد التي كانت موجودة في شرق آسيا، وجنوب شرقها، مثل المعادن الثمينة كالذهب، والفضة، والتوابل، والبهارات، وكذلك العطور العربية وغيرها... التي كانت أوروبا تحصل عليها قبل الاكتشافات عن طرق غير مباشرة من خليج العربي، والبحر المتوسط، والبحر الأحمر، وعن طريق دمشق، وقاهرة، وجمهورية البندقية التي احتكرت تلك الطرق

والثاني: كان عاملا دينياً، الذي دفع الأوروبا بقوة إلى اكتشاف المناطق المجاورة، حيث كانوا لديهم رغبة كثيرة في الدعوة إلى الدين المسيحي في آسيا، وأوروبا، لاسيما الإسبانين والبرتغاليين، فكانت إسبانيا والبرتغال تهدفا إلى بناء اقتصاد قوي، والدعوة إلى المسحية ومواصلة الحروب الصليبية ضدّ المسليمين. وأصبح التبشير عاملا فعالا، خصوصاً بعد أن بينت البابوية عظمة هذه الاكتشافات من الناحية الدينية، ووعدت الفوزَ بالجنة للذين يقومون بهذا العمل، والمهاجرين إلى المناطق المكتشفة لأجل استيطانها.

الثالث: العامل السياسي، فظهور الدول القومية، ورغبتهم في الحصول على الأراضي، والسيطرة عليها بهدف استعمارها، واضعاف المسلمين وإخراج أسواق المسلمين في الشرق من تحت أيدي التجار كان عاملاً مؤثراً لدفع أوروبا إلى تلك الاكتشافات.

فكانت من نتائج هذه الحركة؛ اكتشاف أمريكا من قبل أوروبيين سنة 1492، وطريق بحري في أوروبا حول الراس الرجاء الصالح سنة 1498، فهتان المنطقتان اللتان اكتسبا للأوروبا نتائج مهمة اقتصاديا. ثم بعدها بدأت الحركات الاستكشافية مثل حركة الكشوف البرتقالية، وحركة الكشوف الإسبانية وحركة الكشوف الفرنسية والإنجليزية. فهذه الاستكشافات أثرتْ إيجابيا على الأوضاع الاقتصادية في أوروبا، وخصوصا الإسبانيا حيث كانت تكتشف عن المعادن الذهبية في أمريكا، وتصلها إلى الأوروبا، فأثر ذلك الوضع الجديد على طبقة التجار، وأصبحوهم المستفيدين الأولين منهم، حيث بدأوا التجارة العالمية عن طريق الطرق المكتشفة إلى آسيا، وأوروبا، وأمريكا، ومع مرور زمن قليل تحولت ثروة من طبقة الإقطاعيين (ملاك الارض) إلي (البرجوازية) مما أدت فيما بعد إلى سيادة نظام البرجوازية في أوروبا .

فهذه الاكتشافات قد اكتسبت لأوروبا النتائج الإيجابية من جانب الاقتصاد، لكن فقد أدت إلى النتائج السلبية من جانبها العلمية ممّا تسببت تدهور بعض المدارس، والجامعات الأوروبية الملقّنة فيها الجغرافية، لأن هذه التطورات من اكتشافات الجغرافية، وتقدم علومه، وتغيّرت خريطة العالم بشكل أساسي وإلى صورة غير ما كانت عليها في العصور الوسطى، فأدرك العلماء مدى التناقض الذي كان بين الجغرافية الحقيقية، والتي تُدرَس في المدارس والجامعات، ممّا أدى إلى فقدان ثقة بتلك العلوم التي كانت تدرس، وبالتالي أدت إلى انهيار تلك الكليات، والجامعات التي تعطى فيها المعلومات الجغرافية.[35]

الثالث: حركة الإصلاح الديني، أو النهضة الدينية.

إن حركة الإصلاح الديني تعد من إحدى سلسلة الحداث المؤثرة التي أيقظت عقول الناس، ودفعتْهم إلى الرؤية الحقيقية للواقع الذي كانوا يعيشون فيه. وهي من أهم العوامل التي أدخلت أوروبا في مرحلة فكرية دينية جديد، وهيّئتْها للدخول في العصر الحديث. فهذه الحركة طلعت في القرن السادس عشر على يد اللاهوتي الألماني **مارتن لوثر**(1483–1546)، نتيجة لاعتراضات الناس للفساد، التي غطتْ كلّ جوانب الحياة الإنسانية، والدينية والاقتصادية، والسياسية، والفكرية، والثقافية بسبب حكم البابوية ورجال الدين المسيحي، والإمبراطورية الرومانية المقدّسة التي لم يكن لها حقّ الخروج من أمر البابوية. فكانت البابوية تحكم على الكنيسة مباشرة وعلى الدولة غير مباشرة، وكانوا يحكمون الناس بحكم الإنجيل، الذي ليس لأحد أن يقرءها سوى رجال الكنيسة، فكانت الكنيسة، وإدارتها مملوءة بالفساد، الكهنة واللاهوتيون أصبح أكبرُ همّهم كسب المناصب الإدارية، وجمع الأموال، فأهملوا المصالح العامة للمسيحية، والشؤن الدينية التي كانت هي وظيفتهم الأصلية.

فظهرت هذه الحركة نتيجة لتأثيرات النزعة الإنسانية على فكر المصلحين مثل **لوثر** ورجال ما بعده، حيث كان الإنسانيون ينتقدون الكنيسة الكاثوليكية بسبب احتكارِها للنصوص الدينية، ومنع الناس من قراءة الحرة، وبسبب العنف الذي كان يأخذ به عند رؤية أيّ محاولة فكرية، أو علمية، أو اعتقادية التي لا يوافق تعاليمها. فالإنسانيون كانوا يطالبون أن يطبقوا القوانين، والقوائد الانتقادية على الكتب، والنصوص الدينية، كما طبقوها على النصوص البشرية، وإعطاء الناس الحرية في القراءة التي كانت يمتنع عنها الكنيسة بشدة، لأنها كانت تؤدي إلى حرية الفكر الديني التي تنتهي بسقوط، وهدم سلطة البابا. فبعض المفكرين الإنسيين ألّفوا الكتب، ونشروا أفكارهم حول

الباباوات، وإدارة الكنيسة، فكانوا يركّزون على الفساد التي استولى على الكنيسة من الناحية الدينية والإدارية، وهجموا عليهم، ووصفوهم بأنهم الحمقى الذين حكموا الكنيسة، واتهموهم باتهامات القذرة، كبيع وشراء المناصب الكهنوتية، ومحاباة الأقارب، واحتكار ثروة الكنيسة [36] فكان الإصلاحيون، ومَن بينهم **لوثر**، كانوا يطالبون بالإصرار على ضرورة إصلاح الكنيسة الكاثوليكية، وكانوا بوجه عام يرتكزون على ثلاثة مسائل الرئيسية، وهي: الفساد الأخلاقي في الكنيسة، وعنف الكنيسة ضدّ مخالفيها، والاحتكار الوساطة بين الله والبشر.[37]

فشغفُ المصلحين إلى الإصلاح، ومحاولاتُهم أدت إلى الثورة الدينية، أو النهضة الدينية، بتأثير بعض الأشخاص، ومِن أبرزهم مارتن **لوثر**، الذي أصبح رائد حركة الإصلاح الديني بنظرياته. **فلوثر** كان ينتقد الكنيسة انتقادات شديدة حول الخرافات والأساطير التي أدخلتها في المسيحية، كان هدفه هو الإصلاح في تلك الخرافات، والأساطير التي هو يراها بعيدة عن الديانة المسيحية الحقيقية، التي أدخلت فيها نتيجة لإنحراف الباباوات، واللاهوتيون عن الدين الحنيف، واهتمامهم بالأمور الدنيوية، وكسب الأموال، والمناصب أكثر من الأمور الدينية. كان **لوثر** مُصرا على ضرورة العودة إلى الكتاب المقدس، ودعا إلى تشييد، وبناء الكنيسة التي تكون رسولية، وأقل دنيوية. وواجه الكنيسة الكاثوليكية ببعض الانتقادات الشديدة المتعلقة بالعقيدة، والفساد الإداري، التي غطت كلّ الكنيسة، وجعلت الناس يائيسين من الدين ورجاله. وخصومة **لوثر** مع الكاثوليكين كان حول المسائل المهمة كصلوات القداس، الصوم، والحج، والنذور الرهبانية، وجعل العزوبية شرطا للكاهنين، التضرع إلى القديسين، وبيع المناصب الدينية، وبيع صكوك الغفران.[38]

وكانت القاعدة الأساسية لهذه الحركة هي عقيدة التبرير **للوثر** التي تتخلص في نفي العظمة عن رجال الدين، ومنع صكوك الغفران، والعودة إلى الإنجيل، وفهمه فهما صحيحا. الإيمان مسألة فردية، ومعارضة الصدقات، والأموال التي يستغلها رجال الدين بطرق غير شرعية. فكانت عقيدة التبرير عند **لوثر** يعني (بالإيمان وحده) أي: فلا أحد يستطيع أن يحصل على الخلاص، أو النجاة الأبدي عن طريق أعماله، وإنما عن طريق إيمانه فقط. الإيمان برّ الله، والتبرير يكون بواسطة نعمة الله، فيحصل المؤمن فجاةً بإدراك الإيمان، وامتلاكه على برّ المسيح، فحضور المخلص للمسيح يبتلع كلّ ذنوبه لحظة، إذن المسيح هو المبشر والمخلص الوحيد، بناء على هذا، فالمؤمن المسيحي يحصل على الخلاص والنجاة بواسطة إيمانه من دون تدخل الكنيسة، فإذا لم يستطع هو بنفسة أن يصل إلى الخلاص عن طريق إيمانه، فلا تستطيع الكنيسة مساعدتها. وهو كان يقول: وإن اللاهوتيين الذين يسمحون لبيع صكوك الغفران للناس سوف يعترفون بذنوبهم أمام الله. فلما أصبح الثقة، والإيمان الوسيلة الوحيدة لوصول المؤمن على النجاة، فلم يبق أي معنى لفكرة الأرثوذكسية، التي ترى الكنيسة هي الوسيلة، والسلطة الوحيدة التي تتوسط بين المؤمن وربّه.[39]

فقد كتب **لوثر** إعلانا يتضمن خمسة وتسعين أطروحة حول صكوك الغفرران، ومن أهمها: المخطيء يطلب العفو والمغفرة من الرب لا من البابا، البائع، والمشتري لصكوك الغفران يكون ملعونا، على المسيحي أن يعرف بأنه حرّ من طلب المغفرة، وليس ملزمًا بذلك أبدا، أن الكنز الحقيقي للكنيسة هو الإنجيل فقط، على المسيحي أن يتبع قائده المسيح فقط.

ومن وجهة السياسية للكنيسة، البابا كان يملك السلطات القضائية، والتشريعية للدولة آنذاك، و**لوثر** اتّهم الكنيسةَ، والبابا بسوء استعمال مكانتهم الدينية بمطالبتهم السلطات الدنيوية. وهذا الهجوم انطلق من اعتقاده في الطبيعة الروحية للكنيسة الحقيقية. فأكد **لوثر** على ضرورة فصل السلطة القضائية القانونية للدولة عن الكنيسة. لأن الكنيسة في الحقيقة هي جماعة من المؤمنين فقط. اعتقد **لوثر** على وجود مملكتين للمؤمن المسيحي: المملكة الأولى هي المملكة الروحية أو مملكة المسيح، أي: الكنيسة، فيكون حكم في هذا المملكة حكم الروح الذي لا علاقة له بشؤن الدنيوية، والمملكة الثانية: هي مملكة العالم الذي كان قصده بالعالم السلطة الزمنية، وهذه السلطة مقررة من قبل الله، وجزءٌ من الإلهية، ويكون السيف بيد الحكام الدنيوية لتامين الحفظ والسلامة للرعية، وتحقيق السلام الخارجي، وهذا ليس فيها أي تصادم للكنيسة الحقيقية التي تتكون من عالم روحي خالص، وعلى هذا يجب على المؤمن أن يطيع السلطة مهما كانت بشرط عدم الخطيئة. وبناء على ذلك فإن مطالبة الباباوات بممارسة السلطات القضائية تعتبر تعدياً، واغتصابا للسلطات القضائية. [40]

فاعتراضات **لوثر** الشديدة أدت إلى شجبه من جانب الكنيسة، واتهامه، وتهديدة بشتى الحكام المخيفة، وهذا لم يجعل **لوثر** أن يتراجع، بل استمر بثبات أكثر، وألقى أنصار كثيراً من الدول الأوروبية كانجلترا، هلندا، فرنسا، ودعمه الإنسانيون في ألمانيا بشغف. وبعد ذلك بنى **لوثر** وأنصاره الكنيسة اللوثرية، وبدأوا فيها بقراءة الكتاب المقدس، وتحليل النصوص الدينية، وتفسيره، ونشره، فقد قام **لوثر** (وإن لم يهدفه) بشقّ الوحدة الدينية الموجودة في العصور الوسطى، وقسّمها على مذهبين؛ الكاثوليكية، واللوثرية، أو البروتستانتية، التي كانت تقول بضرورة الفصل بين الدين، والدولة، والفلسفة واللاهوت، والعقل والإيمان، والقانون، والإنجيل، وبين الحب، والواجب. وهذه الحوادث كلّها أدت إلى ضعف السلطة الكنيسة الكاثوليكية، ورجالها، وثقة الناس بهم، وأدت إلى حروب الدينية في أوروبا التي استمرت ثلاثين عاماً. [41]

فبعد **لوثر** أصبح **جون كالفن** (1509–1564) من أهم الشخصيات المؤثرة في حركة الإصلاح الديني، فكان موافقاً مع **لوثر** في عقيدة التبرير، والاعتماد على الكتاب المقدس وحده، واقتصار العبادة على الصلاة، والوعظ. فلم يعترف **كالفن** بأسرار المقدسة سوى التعميد، والقربان المقدّس. فالمسألة التي كانت قد تشكلت المحور الرئيسي للدراسات **كالفن** هي مسألة الأخلاق، فكان الأخلاق عنده القناعة، والعدل، والتقوى. وهذا الأخلاق كان على عكس الزهد، الذي كان عليه الكاثوليكية، فكان **كالفن** يرى أن الإنسان له حق الامتلاك، واكتساب الأموال، والتمتع بالحياة، وما حرمه الله عليه هو سوء الاستعمال، لا الاستعمال، فكان يرمي إلى تهذيب الطباع، وتقويم الأخلاق المسيحي.

فاعتقد **كالفن** بأن البشرية جزئين: جزء سيشملها الخَلَاصُ، والآخر سيلحقها العذابُ، وأنّ جدارة الإنسان وإجراميته تحددان مصيره، لأنّ أوامر الله يمكن أن تخضع للتعديل تحت تأثير البشرية، لا أحد، ولا أيّ شيء يمكن أن يغير مصير الإنسان، إلا تمجيده لربه عن طرق أعماله الصالحة، وثقته به، والإخلاص نيته له، وأن الله يريد للمسيحي الفعالية الاجتماعية، ويرغب في أن تكون الحياة الاجتماعية متناسقةً مع أوامره؛ لهذا فإن أداة نجاته هي الكدح، والعمل؛ لأجل إرضاء الله في أداء وظيفته التي تتمثل في خدمة الحياة الدنيوية للجماعة، وهذه

الخدمة تكون اجتماعية لا شخصية، فعن هذا الطريق يستطيع العبدُ الحصولَ على النجاة والخلاص الأبدي؛ لأن الربّ إنّما يقدم المساعدةَ لمن يساعد نفسه؛ ولأن **كالفنَ** قد كان يعيش في النهضة الاقتصادية، وإدرك تأثيرها في تغير الحياة الاجتماعية، والاقتصادية في أوروبا، ونشأ في عائلة برجوازية؛ ولأنه كان متأثرا بشدة بالإنسانية، وكان يعتقد أن الأوضاع، والنظم قد تتغير حسب العصور، والبلاد، وبناءً على هذا فقد أباح الربا؛ لأنّه كان يرى ضروراً للوضع الاقتصادي لبلاده، ويرى أن التجارة غير ممكنة دون القرض بالفائدة. فنظرية الأخلاق عند **كالفن** يكون لها دورٌ رئيسيٌّ في تحول العقلانية الاقتصادية للبرجوازية إلى العقيدة الدينية، وساهم في تطور هذه الطبقة في المجتمع الأوروبي في ساحة العمل، والتجارة، فسوء الاستعمال الذي كان يحرمه **كالفن** هو نفس الفكرة التي كانت عليها الرأسمالية؛ حيث كان يقول: بوجوب جمع، ودخر أكبر القدر الذي كان يكتسبه الإنسان من الأموال وعدم تبذيره. [42]

فبظهور الحركات الدينية الإصلاحية تعرضت البابوية للصدمة من ناحيتي السياسية والاقتصادية، فمن جهة السياسية كانت تلك الحركات تركز على إضعاف نفوذ البابوية، وتدخّلها في شؤن الدولة، وإضعاف مكانة رجالها كطبقة سياسية، ومن ناحية الاقتصادية فقد حرمت هذه المذاهب الدينية الكنيسةَ الكاثوليكية من إملاكها الزراعية، وجعلتها تابعة للدولة مباشرة. [43] فهذه الأسباب الثلاثة قد أدتْ إلى النهضة في كلّ مجالات الحياة، العلمية، والفكرية، والفلسفية، والسياسية، فكل من النهضة الفكرية، والدينية، والاقتصادية وَضَحْنَاها في الأسباب النهضة، وهنا نذكر موجزا عن النهضة العلمية والسياسية.

النهضة العلمية:

بعد أن أُدخلت المناهج الإنسانية من الفلسة، والأدب اليوناني في المدارس، والجامعات، بدأتْ هذه العلومُ تتطور، وتصير موضع اهتمام الكثيرين في الجامعات، وتدهورت المدرسية الفلسفة التي كانت سائدة في العصور الوسطى. وكانت الدراسات الإنسانية، والعلوم الطبيعية من علم الفلك، والرياضيات وغيرها من العلوم قد تغيرت مسارها، وبدأ من القرن الخامس عشر إلى أن تغيرت الحياة الإنسانية، وأدخلت في مرحلة جديدة علمية عن طريق الكشف الستائر عن العقل، وإظهار الحقيقة التي كانت لم يدركها البشرية من قَبْلِ ذلك الرجل العظيم، الذي كان قضى كلّ حياته في كشف الحقائق العلمية في القرن السادس عشر، وهو **نيكولاس كوبرنيك** الذي يعتبر ربّ العلم الفلك الحديث (1473-1543).

في حين أن الكنيسة كانت قد تعتمد على نظريات **أرسطو** في علم الفلك الذي كان يقول بأن الأرض من تراب، وسكونها يستلزم بأن تكون هي مركز الكون. و**بطليموس** (100-160) الذي كانت الكنيسة قد اعتنقت لنظرياته الفلكية، وجعلها المرجع الأساسي للعلوم الفلكية حتى القرن السادس عشر، والذي وصل من خلاله دراساته للأجرام السماوية إلى نتيجة القول بمركزية الأرض، ودوران الكواكب الأخرى حولها، فنظريته هذا أصبح نموذجاً صحي[44]حا معتبرا تعتمد عليها الجامعات، والمدارس طوال العصور الوسطى. حتى أن ظهر **كوبرنيك** الذي أثبت بدراساته، وتجاربه عكس ما كان يعتقده الفلك البطلمي، حيث قال: إن الأرض ليس ثابتاً، وإنما تدور

دوراً مزدوجاً حول نفسها مرة في كلّ يوم، وحول الشمس مرة في العام، وإن الشمس هي مركز الكون، وليست الأرض، وإن الجرائم الأخرى بما فيها الأرض تدور حولها. [45]

فهذه النظرية كانت صدمة للكنيسة، ولم يكن قبولها سهلا عليه؛ ولهذا على الرغم من وجود الاختلافات الكثيرة بين **البروتسنانتية والكاثوليكية** فقد اتفقا كليهما على الاعتراض على **كوبرنيك**، ومحاربتها، وأحسبوها أنها مجرد فرضية لا غير؛ لأن الأرض كان موضع اهتمامهم، فهي في الأصل من إبداع الخالق؛ ولأن فيها أشرفَ، وأروع مخلوقاته؛ لذا يجب أن تكون مركزَ الأرض، وليست الشمس. فبعد انتشار نظرية **الكوبرنيك** بدأ التشكيك الفلاسفة، والعلماء من نظريات **أرسطو** و**بطليموس** التي اعتنقها الكنيسة الكاثوليكية عشرة القرون، ومهد هذا التشكيك للفصل بين كلّ من الفلسفة، والعلم من اللاهوت، والدين فيما بعد. فبينما كانت الكنيسة قد استمرت في مخالفة **كوبرنيك**، ووصدر حكم المنع على كتبه، فإن الملوك كانوا يتعاونون مع العلماء، ويساندهم لرغبتهم في بناء الدولة القوية المؤسسة على المعارف الجديدة. فنظرية **كوبرنيك** فتح باب المناقشة لتفسير الظواهر الأخرى، والإكتشافات العلمية الجديدة مثل الظاهرة سقوط أجسام الأرضية إلى الأرض، وجاذبية الأرض، والظواهر الأخري التي كشفها العلماء بعده مثل **كلبير**(1571–1630)، غاليلوونيوتون.

الكوبرنيك لم ينجح في اقناع الكنيسة بآراءه حول الفلك الجديد الذي اكتشفه هو، وأصبح اكتشافه جرما دينيا، وخروجا عن المسيحية ممّا خوف الكثيرَ من العلماء الذين أدركوا حقيقتها في مساندته. فكان من أبرز المعتنقين **بالكوبرنكية** واختفى اعتقاده خوافا من الكنيسة، هو العالم الإيطالي الشهير **غاليلو غاليلي** (1564–1642)، فبعد دراسته التفصيلية للقوانين الرياضية، ونظريات التقليدية في علم الفلك، أعرض عن كل هذه نظريات التي تدرس في المدارس، والجامعات؛ لأنها كانت بعيدة عن الواقع في نظره، واتجه إلى ربط الرياضيات بالتطبيقات العملية. واستمر في اخفاءه للاعتقاد **بالكوبرنيكية** خوفا من الكنيسة، ولاسيما بعد إعدام **جوردانو برونو**(1548–1600) حرقا بالنار أمام محكمة التفتيش؛ لدعوته لنظرية **الكوبرنيك** ودفاع عنه، ورفضه لنظريات **أرسطو وبطليموس** في مركزية الأرض. [46]

فبدأ **غاليلو** بصناعة المقايس العدسات، وكان يجمع الأدوات المغناتيسية، واخترع مقياسا لحرارة، ووضع نظريتة حول قانون الأجسام الساقطة، التي تعتبر بداية البحث في الجاذبية. واهتم كثيرا بدراسة الميكانيكا، وبين أن الحركة الطبيعية هي حركة واحدة، وهي الحركة الهابطة، بخلاف ما كان عليه **أرسطو** الذي قسمها إلى حركتين: الهابطة والصاعدة. ووصنع غاليلو التليسكوب، واكتشف بها الكثير من الظواهر حول الأرض، والشمس، وبقية الكواكب مثل القمر، والزحل وغيرها، وثبت أن الكواكب أحدى عشر، وليس سبعة، كما قال **أرسطو**: وبهذا فقد ازداد عدد الأفلاك، والكواكب التي حددها **أرسطو**. [47]

فدراسات **غاليلو** الفلكية وصلها إلى اليقين التام بالكوبرنيكية ممّا جعله يُعلن اعتقاده بها في سنة 1597، واعترف بأن نظريات **الكوبرنيك** هي التي ساعدتها في تفسير العديد من الظواهر الطبيعية، فهو على الرغم علمه بما يترتب على دفاعه **للكوبرنيكية** بدأ يدعو إليها، وكان يحاول أن يقتنع بكبار رجال الدين؛ ليحصل على تأيديهم، حتى يصل إلى هدفه الرئيسي، الذي هو كان التوفيق بين الدين والعلم الحديث. فاعترافه **للكوبرنيكية**

عرضه معرض اعتراضات، وهجومات شديدة من قبل أعدائه، واتهموه، وعلم الفلك الجديد بأنه معارض لنصوص الكتاب المقدس، ووصفوه بعلم الفلك الشيطاني، واتهموه بأنه زندق لأقواله: "بأن الأرض تتحرك، بينما الشمس ثابتة، وإن بعض الآيات في الكتاب المقدس لا تطابق حقائق علمية، وإن مناقشة الظواهر الطبيعية لا ينبغي الرجوع إلى الكتاب المقدس، إلا في آخر الأمر" مِمّا أدى إلى ارتفاع الشكوى ضده، وقرّر **الفاتيكان** بإجراء التحقيق في مكتوباته. وحكم عليه بالحبس في النهاية، وأجبروه بالاعتراف بأن كلّ ما اكتشفه كان انحرافا من الدين، وأعلن ندمه أمام الناس.[48]

فجاء بعدهم **نيوتن**(1642–1727) الذي استطاع أن يربط بين قوانين حركات الأرض **لغاليلو**، وقوانين حركات السماء **لكلبير**، واكتشف أن القوة الإهليلية للكواكب هي نفسها القوة التي تحكم على سقوط الأجسام صوب الأرض، وبيّن أن كلا القوتين: السماوية، والأرضية عبارة عن قوة واحدة، وهي القوة الجاذبية، فبهذه الطريقة اكتشف **نيوتن** القانون الجاذبية . وقد وضع كثيرا من القوانين الرياضية، وعلوم السوائل المتحركة، والسوائل الساكنة، وانتشار الأمواج وغيرها من الاكتشافات التي تقدمت بها الأوروبا علميا وفكريا. [49]

الخامس: النهضة السياسية

في حين أن التغيرات الفكرية، والعلمية، والاقتصادية، والسياسية التي طرأت على أوروبا من القرن الرابع عشر فصاعدا، ولاسيما القرن السادس عشر التي أدت إلى إعادة تشكيل نظمها، ومؤسساتها على نمط جديد في مستوى يمكنها تلبية حاجات الناس، فغير ممكن تصوّر بقاء النظام السياسي للدولة كما كان هو عليه، وخصوصا بعد الانكشافات الجغرافية، وتغير نظام الاقتصادي إلى البرجوازية، التي كانت تهدف إلى سقوط النظام الاقطاعي، ومسحه في ساحة العمل، والتي أدت تطورها في الإيطاليا إلى تطور الفكر السياسي فيها.

فبتطور البرجوازية، ونفوذها في المجتمع، وانهيار الإقطاعية، وانتشار الإنسانية التي تسببت ظهور الانتماءات القومية، وانقسام الكنيسة الرومانية إلى الكاثوليكية، والبروتستانتية، ووجود الخلافات الفكرية، والعقيدية والسياسية بينهما، والصراع الدائمي البابوية مع الإمبراطورية، وانتشار اللغات القومية، وفقدان اللغة اللاتينية سيادتها، وهيمنتها، التي كانت لغة الدين، والدولة، بدأت الإمبراطورية المقدسة تسقط، وتحلّ محلّها الدولُ القومية، وأصبح القرن السادس عشر عصر الاستقلال السياسي لبعض الدول الأوروبية، فظهر إنجلترا كدولة قومية بعد حروب داخلية، التي دامت ثلاثين عاماً بعد سنة 1485، وفرنسا بعد سنة 1595، وبرتغال وباقي دول الأوروبية واحد تلو الآخر، وبهذا قد انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو الوحدة المسيحية العالمية، وأصبحت الملكية المطلقة (الأوتوقراطية) هي نظام الحكم في الدول الأوروبية. فأخضعت الكنيسة للحكم الملكي، وقام الملك بإصدار الأموال الكنيسة، وأراضيها، وتوزعها على الطبقة المتوسطة. [50]

وفضل هذا التطور في الفكر السياسي يرجع إلى التأثير السياسي الشهير لعصر النهضة **نيكولاس ميكافيلي** (1452–1498)، الذي وضع أساس الدولة القومية، وكان له مؤلفات في أمور سياسية، وقام ببعثات دبلوماسية إلى فرنسا وروما وألمانيا. وأسس **ميكافيلي** بناء السياسية للدولة الحديثة بوضعه لنظريات، وقوانين سياسية في كتابه "الأمير"، وأكّد فيه بأن القوة هي سرّ نجاح الحكام، وعلى الأمير أن يتمسك بالحرب لحفظ كيانه وبلده، وبيّن

أن الأقوياء في الحرب هم الناجحون في إدارة السلطة، وجعل وجود الحرب ضرورية لكل بلد؛ لأن السلام الدائم يضعف أبناء الأمة.

فأفكار **ميكافيلي** السياسية كانت مستهدفة لبناء السياسة العلمانية بعيداً عن الدين، وتدخل البابوية، حيث كانت تبني أفكارها على مجد روما، ووثنيتها، وانتقاد البابوية بأنّها غرست في نفوس الشعب الإيطالي نزعات شريرة، وجعلتهم غير متدينين، وجعلت الحيلة، والمال، والقوة من أسباب، ووسائل النجاح، وهو كان يدعي الأمير إلى الأخذ بالاخلاق الوثنية، التي كانت في اعتقاده مصدر الكبرياء، والسلطة للحاكم، وتجنبه من الفضائل المسيحيه التي تعكس روح المذلة لمن يمارسها. [51]

المطلب الثاني : العصر التنوير وإنجازات التي حصلت عليها أوروبا فيه.

في القرن الثامن عشر شهدت أوروبا حركة فكرية واسعة التي تهدف إلى تنوير العقول عن طريق العلم والمعرفة، وتغير الأوضاع الاجتماعية، وعاشت تحولات إيجابية كثيرة، التي كانت تمثل في الإنجازات العلمية والطبيعية، التي تأثرت بها كلّ جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، والسياسية. وكانت هذا القرن بمثابة جسر، مرتْ عليها أوروبا لتدخل عصر الحديث، أو عصر الحداثة، وتترك وراءها العصور الوسطى، وعالمها الخاص، وقد سميت بالعصر التنوير. على الرغم نسبة هذه الحركة إلى الفرنسيين، لكن في الحقيقة إنها قد نشأت في بريطانيا مبكرا بتأثير أفكار كلّ من **بيكون**،(1561-1626) و**جون لوك** و**نيوتن** إلّا أنّها قد انفجرتْ في فرنسا عن طريق ثورتها المشهورة بالثورة الفرنسية، وذلك نتيجة للظروف السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي عاشتها الفرنسا. ومن أشهر الفلاسفة التنوير الفرنسيون **فولتير**، **مونتيسكو**(1689-1755)، **جان جاك روسو** و**ديدرو**(1713-1784). [52] يعتبر العصر التنوير بالفترة التي دخلت الحياة الإنسانية في مرحلة جديدة والتي لم يعشها منذ التأريخ الإنساني. فخرج الإنسان في هذا العصر من ظلمات الجهل، والتعصب، وأضاء عقله واستنر. فالحوادث التي جلبتْ هذا الغلبةَ، والفوزَ لأوروبا في هذا العصر جاءت واحد تلو الآخر، أو جنباً إلى جنب، الثورة الفكري الفرنسي، التي طلعت على يد **ديكارت**، والحروب الدينية التي طالت ثلاثين عاماً، وجاءت بالعلم الحديث، كلّها صنعت العقلانية التي أصبحت لا تثق بأيّ شيء، إلا بعد اثباته بالأدلة العلمية، والعقلية. [53]

أصبح أوروبا بدأت بالاختراعات، والاكتشافات العلمية، والصناعية الجديدة، ورفع مستواها علمياً، وثقافياً ومادياً. فشرع باستخدام الهندسة، والعمران، والبناء، واستعمال المواد الكيمياوية، والصباغ و.....غيرها من الأشياء التي لا تعدّ، ولا تحصى. وكذلك اكتشاف الآلات العلمية مثل النظارات، والساعات، وكلّ الأدوات التي كان تتطلبها الحياة الجديدة، فازدادت رغبة الناس في التقدم، والعلم، وممّا دفعتهم لتشيد المدارس، والجامعات الجديدة، وإنشاء طبقة الباحثين، والدارسين بعلوم مختلفة، ممّا أدت إلى تقدم العلوم الفلكية، والطبيعية، والطبية، والنباتية، والحيوانية، والعلوم الكيمياوية، والجيولويجية، وظهور الفلسفة الحديثة، وإنتاج كل تلك التخصصات المختلفة إنتاجات جديدة في مجالها. [54]

فأمّا بالنسبة للحالة الدينية للعصر التنوير في أروبا وخصوصاً في فرنسا التي أصبحت زعيمة لحركة التنوير، فقد كان الحكم الملكي المطلق ازدهرت فيها طوال القرن الثامن عشر في عهد **لويس** الرابع عشر(1638-

1715)، فكان الملك يرى نفسه مُمثلا لله على الأرض، وكان يعتقد أنه إنما يتلقى سلطته من الله وحده، وليس لأي سلطة أرضية أن يخضعها لأمرها، وكان يعلن ذلك في ختام كلّ رسائله الرسمية بقوله: " ملك فرنسا وتافار بنعمة الله". **ولويس** الخامس عشر(1710–1774) الذي تولى السلطة بعده، أصدر إعلانا أعلن فيه: "نحن لا نلتقي تاجنا إلا من الله، وإلينا وحده يعود حقّ إصدار القوانين التي بموجبها نقود رعايانا، ونحكمهم دون ارتباط، ولا مشاركة" وألغى بذلك حقّ السلطة التشريعية للكنيسة، ورجع إلى نفسه مصدر كلّ تشريعات للبلد. وكذلك أعاد إلى نفسه وحده بدون تدخّل أي شخص بجانب السلطة التشريعية النظام السياسية، والإدارية، بقوله: "إلى وحدي تعود السلطة التشريعية، دون ارتباط، ولا مشاركة، وعني به إصدار النظام العام كله. [55]

وإلى جانب هذه التحولات ظهورُ الفلسفة الحديثة، التي ظهرت في القرن السابع عشر، وازدهرت في العصر التنوير قد تأثر كثيرا على الفكر الديني، خصوصا على المسيحية، والكنيسة. فقد استهدفت الفلاسفة في القرن السابع عشر انفصال الفلسفة عن اللاهوت، ووضعوا لها أساسا علميا، كي تعتمد على العلم، واعتبروها جزءاً من العلوم الطبيعية، وألغوا مبدا الوحي للفلسفة، وكان من أشهرهم **جوردانو برونو**، و**رينية ديكارت**، و**هوبز**،(1588–1679) **بيكون وسينوزا**(1632–1677) وممّن جاء بعدهم من الفلاسفة في العصر التنوير، فقد بنوا فلسفتهم على أفكار من قبلهم، بل ذهبوا إلى أبعد ذلك حيث كان بعضهم قد أنكروا وجود الله، أو صحة الدين . فإنّ تقدم العلم وإخراج الفلسفة من إطارها الدينية، والصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية أدتْ إلى ظهور اتجاهات دينية مختلفة، والمذاهب المسيحية الجديدة، واتجاهات غير دينية، مثل التصوف، واللاأدرية، والإلحاد. وبتأثير آراء وأفكار المتصوفين من **يوحنا**، **ويزلي**(1703–1791) **جورج فوكس** (1624–1691) تغيرت المسيحية مسارها مِن الدين الاجتماعي إلى الدين الفردي، والشخصي، وأصبحت المسيحية إلهاماً داخلياً بحتاً، لا علاقة لها بالكنيسة، وشعائرها، وطقوسها، ولا بالدولة وقوانينها، بل إنها حالة فردية فحسب، مما أدت إلى انفصال الكثير من الناس من الكنائس لتشددهم في أداء الطقوس الدينية القديمة. [56]

وكذلك فقد ظهرت الديانة الطبيعة نتيجة لأفكار بعض الفلاسفة نحو حقيقة الدين في القرن السابع عشر، وتطورت في القرن الثامن عشر. فقد دعى إلى ذلك النبيل الإنجليزي **هربرت شيريري** 1583–1648، الذي كان يحاول إثبات توقّف الحقائق الدينية على الإدراك، لا الوحي، وكانت الديانة الطبيعية عبارة عن الإيمان بالله، والفضيلة، والخلود حسب العقل التي هي من أعمال الإدراك عنده، وكان يرى أن الوحي هو من اختراعات رجال الدين. ومن أبرز الدعاة إلى الديانة الطبيعية في بداية القرن الثامن عشر هو كان **بيير بيل** 1647–1704، الذي كان ينادي إلى الحرية الفكريّة، وكان مُصراً على فكرة التسامح الديني. و**فولتير** يرى أنها هي المبدأ الذي يجب أن يسيطر على العقول البشري، وقد استطاع **فولتير** أن يقتنع الكثيرين بالإيمان بالديانة الطبيعية بأفكاره. [57]

فالفلسفة الحديثة تسببت المعركة بين المتدينين والعقلانيين من الفلاسفة بعد عام 1760 عنما صدر بعض الكتب من الفلاسفة. فكانت رؤية الفلاسفة والمفكرين وأفكارهم في هذا العصر مُنقسمة على قسمين: منهم من ركزوا على تغيير جذري وتجديده؛ لنمط اليقين الديني، وناقشوا حول صيغة الإيمان وجوهره، فكان هدفهم تنظيف الدين، وتهذيبه من الشوائب، والخرافات التي علّقوا بها الآخرين، فلم ينكروا الكنيسة الكاثوليكية فقط، بل رفضوا

كلّ المعتقدات الدينية، والإيمان بالقوى الغيبية، والمعجزات التي تخالف العقل، وقوانينه. حتى رفضوا الفكرة التألية التي هي إيمان بوجود الله فقط، وترك كل ما عداه من معتقدات، وشعائر، وطقوس؛ لأن رجال الكنيسة عن طريق تلك المعتقدات يجبرون الناس على الخضوع للجبابرة، ويسلبون منهم استقلالية التفكير. ويعدّون الخلاص من هذا الدين الوسيلةَ، والطريقة الوحيدة لتحرير عقل الإنسان من الخرافات، والتعصب المذهبي، وفتح أبواب السعادة أمامهم [58] وهنا نتكلم باختصار عن بعض الشخصيات، والأعلام من الفلاسفة المؤثرة في عصر التنوير.

بعض الأعلام من المفلاسفة والمفكرين لعصر التنوير

الأول : ديكارت

ديكارت 1596–1650 هو الذي افتتح أوّل الثورة في الفكر الحديث، وفي الحقيقة هو ليس من المفكرين الذين في عصر التنوير؛ لأنه لم يعش في ذلك القرن، بل يعد من الفلاسفة الذين مهدوا الطريق لمجيء التنوير في القرن الثامن عشر، فعاش **ديكارت** في القرن السابع عشر، وولد بفرنسا، وقد صرف أكثر عمره في هولندا. فالشيء الذي جعل **ديكارت** مميزا عن غيره من الفلاسفة قرنَه، ورؤيته للفلسفة، هو وضعه للمنهج الشك في الفلسفة الذي بنى عليه الفلاسفة في عصره، والعصر الذي جاء بعده نظرياتهم الفلسفية حول العالم، ويُعتبر الخطوة الأولى أو أهم الخطوة نحو الطريق إلى التنوير.[59]

فهو ينتقد الفلسفة التي تُدرَس في المدارس على أنّها مجرد معارف نظرية، وعقيمة، التي لا تزيد شيئاً في محال العمل. فالفلسفة عنده كان نظراً، وعملاً كما يقول: "فإذا عرفنا ما للنار، والماء، والهواء، والسماء، والكواكب، وكلّ الأجرام الأخرى من قوة وأعمال، معرفةً صحيحةً، ودقيقةً التي لم يبقى فيها أيّ شكٍّ وغموض، فلابد أن نقدر على استخدامها واستعمالها في مصالحنا، ومنافعنا، فبذلك نكون مسخرين للطبيعة وسادتها، "[60]. وله مؤلفات كثيرة على المواضيع العديدة من إثبات وجود الإنسان، ووجود الله التي سمّاها مباديء المعرفة، أو الميتافيزيقيا، وكذلك عن الفيزيقا، أي: الأشياء المادية، وعن ميكانيكا السماوية التي يصف فيها حركة الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس، وعن الأرض وخواص المغناتيس و..... الخ [61] فكانت أفكاره ساهمت مساهمة كبيرة في التقدم الفكري البشري بصفة عامة، وفي تطوّرِ العلم، والفلسفة بصفة خاصة في الأوروبا كلّه، وفي تأثيره البالغ في عقول الفلاسفة في القرن الثامن عشر.

الثاني: جون لوك (1632–1704).

لوك قد أمضى أكثر عمره في القرن السابع عشر إلا أنه يُعتبر من فلاسفة عصر التنوير؛ لأنّه قد عاش في هذا العصر، ومات في بدايته، فهو من أبرز الفلاسفة في عصر التنوير، وكان له تأثيرٌ كبير في التوسع بالتطبيق للفكر الإنساني، وتحرر الفرد من القيود الدينية. فهو قد استطاع أن يحرر عقل الإنسان من سلطة النقل بأفكاره، بل وأخضع الإيمان لسلطان العقل، فقد كان يتأكد على الأخذ بالتجربة، ويراها هي وحدها صالحة لتكون مصدراً لكل المعرفة. وكان يقول: إذا تناقض العقل، والايمان أو الوحي يجب رفض الإيمان، وتسليم العقل، لأنّ العقل هو الذي يقدم لنا معرفةً، تبلغ بها إلى اليقين، ومَن أفسح مجالاً للدين باستبعاد العقل، فقد أطفأ نور كليهما.

وقد دعا **لوك** إلى الحرية في العقيدة، والحرية الدينية، وكان ذلك يستلزم الفصل بين الدين والكنيسة؛ لأنها ما كان يتحقق إلا بذلك .[62]

الثالث: فولتير (1694-1778)

هو كان يؤمن بالعقل والتجربة الإنسانية إيمانا جازما، فاستطاع من خلال فلسفته النقدية أن يستيقيظ الأوروبين عامة، والفرنسيين خاصة من غفوتهم، وكان أكثر انتقاداتِه، وأشدّها موجّه للدين والكنيسة الكاثوليكية، فكان يكره الدين المسيحي بشكل عام، والكنيسة الكاثوليكية بشكل خاص، وكلّ دين لا يعرف التسامح، ويفضل الإيمان على العقل، فكان يرفض أن يكون لليهودية والمسيحية أصلٌ إلهيٌ، أو أساس شرعي، بسبب التناقضات الموجودة في الكتابين التوراة والإنجيل. [63] فكان يقول: فهل من الإمكان أن يظن المرء أنّ الربّ ذاته يفرض مبدأ " العين بالعين، والسنّ بالسن" في التوراة، ثم يأتي بالإنجيل فيطلب "أن نمدّ خدّنا الأيمن لمن يصفّقنا على خدّنا الأيسر، وأن نُعطي رِداءنا لمن سرق ثوبنا" وأن لا نقاوم الشرير" فهل هذه القوانين تتفق أوامر التوراة؟ فمن ناحية رفضه لأديان سماوية جعله ممّن ينظرون إليه كمعتنق للدين الطبيعي، لا للدين السماوي. "[64] فأصبح **فولتير** في أوروبا بفلسفته النقدية رسلا من رسل الحرية الإنسانية، وداعيا لتحرير العقل البشري من الخرافات الأكاذيب، والأساطير.

الرابع: جان جاك روسو(1712-1778)

كان **روسو** يعزف على وتر الحرية كغيره من فلاسفة عصره، إلّا أنه كان يركز على فتح آفاق الفلسفة السياسية لذلك العصر واتساعها، وكان يؤمن بأن الإنسان حرٌ منذ ولادته، وكان يدافع عن الحرية الفردية ضدّ استبداد الحكومات، وكان يحاول أن يربط بين الفرد، والمجتمع مع بقاء حرية الأفراد، وكان يؤمن بدين الفطرة، وعبادة الله حسب التعاليم التي ألقاها في ذهن الإنسان، ومشاعره، بدون الحاجة إلى الالتزام بطقوس وشعائر معيّن لأيّ دين. [65]

الخامس: هولباخ (1723-1789)

هولباخ كان يرى أنّ الدين مصدر كلّ شرٍّ في العالم، وكان ينكر وجودّ الله، ويرى أنّ الكون ليس إلا مادة تتحرك تلقائياً، وأنّ الروح قد تتلاشى عندما يموت الإنسان، والإنسان لم يكن موجوداً إلَا بهدف التمتع بالحياة وملذاتها. [66]

لم تكن الفلسفة الحديثة والتقدم العلمي السببَ الوحيدَ لرجوع المسيحية إلى الوراء، وضعف سلطتها، وزوالها، بل إلى جانب ذلك هناك أسباب أخرى:

1 . فقدان الكنيسة ثقتَها، ومِصداقيتَها بين الناس، ولاسيّما المثقفون والمفكرون منهم، وذلك نتيجة لتناقض الذي كان يظهر في أقوالهم، وأفعالهم، وكذلك الحروبُ الدينية التي حدثتْ فِي أوروبا، وخاصة في فرنسا، وكذلك جرائم الكاثوليكين في محاكم التفتيش التي قامت بإصدار حكم القتل، والحرق لخمسين ألف شخصٍ متهمٍ بخروجهم عن الكاثوليكية من خلال ستين عاماً تقريباً بين عامي 1570-1630، كلّ هذا أدى إلى نفور الناس من الكنيسة، ورجالها، والشك في الدين الذي يأمر الكاثوليكي أن يقتل البروتستاني، الذي كان مؤمناً مثله، وساهم في تدمير التصور المسيحية في العالم .[67]

2 – ثورة القراءة: شهدت أوروبا في القرن الثامن عشر تطوراتٍ هائلةً بالمقارنة بالعصور السابقة، فبدأت بانتاج الأفكار الفلسفية، والثقافية، والأدبية، ونشرها عن طريق الطباعة، فأدخلت المنتجات الثقافية في التجارة العالمية، التي قد بدأت آنذاك ضمن السلع الاستهلاكية، فشغف الناس لقراء الكتب غير الدينية المكتوبة بلغات عامية، وكان يشجعهم للتجمع في المقاهي، والمحافل لمناقشة ما يقرؤون، وتبادلِ الآراء حول الموضوعات، والمشكلات، والانتقادات الكتابِ مِن الواقع الذي كانوا يعيشون فيه، فهذا الشغف في القراءة لم يختص بالرجال فقط، بل المحافلُ كانت مفتوحة أمام النساء أيضاً، فأصبحت المقاهي مراكزَ الحوار، والنقاش حول أفكار التنوير بين النخبة القديمة، والحديثة من المثقفين خصوصاً في بريطانيا وفرنسا .

3 – بروز مؤسسات إجتماعية جديدة المركزة على تبادل أفكار التنوير، ونقل المعلومات. وكذلك إيصال أفكار التنوير من المدن إلى السكان الريفي، الذين كانوا يشكلون أكثر عدداً من سكَان الأوروبي عن طريق الخدمة البريدية.

4 – ظهور الحركة الدينية الربانية التي استغلت آراء **نيوتن** لمساندة أفكارها،. فبيّن **نيوتن** في كتابه " القواعد الرياضية للفلسفة الطبيعية" أن الكون يرى فيه برهانا على وجود الله، وعلى اهتمامه بالمخلوقات الطبيعية دون الحياة اليومية للبشر، بمعنى: أن الله هو خالق الكون فقط، ولا يتدخل في الأمور الأخلاقية للناس، وشؤنهم اليومية. فهذه الحركة أثرت تأثيرا بالغا في تصور الفكر الديني بين الناس في فرنسا وبريطانيا، وأنكرت قدرة الإنسان على التعرف على المعلومات عن الخالق سوى حقيقة وجوده، فتعتقد بأن الدين فطرةً موجودةٌ في الإنسان أساسا، والمعلومات الدينية يمكن تحصيلها بأعمال العقل دون الخضوع لتعاليم، أو طقوس أيّ مذهب ديني بعينه، وكذلك انتشار حركات دينية أخرى مثل ظهور الحركة الدينية "التقوية" في اللوثرية في ألمانيا وغيرها التي أكدت على الإيمان الفردي أي: الشخصي والعاطفي .[68]

وفي نهاية القرن الثامن عشر أصرّت الفلاسفة –خصوصا المعتقدون– بالديانة الطبيعية بطلب التسامح الديني، وإلغاء حقّ تدخل الكنيسة، والدولة في الأمور الدينية للأفراد، وإعطائهم الحرية الدينية، ممّا جعل ملك فرنسا **شارل** الثالث بإلخاء سلطات محاكم التفتيش، وإظهار البابا ميله نحو التسامح الديني، ومنح الناس الحرية الدينية. وأعلن رسمياً بوجوب عدم تدخل الدولة في الأمور الدينية، وبعد الثورة الفرنسية بدأ تدريجيا انفصال الكنيسة، وسلطتها عن الدولة، وحلّتْ محلها العَلْمنةُ، وتقدمت العلمنة في نهاية التسعينيات: القرن التاسع عشر، وقامت الجمعيات التشريعية (وهي الجمعية التي قد تأسست سنة 1791م للمبادرة بوضع دستور جديد لفرنسا [69] بإلغاء الجمعيات الدينية، وإزالتها، والتي كانت لا تزال تشرف على التعليم، والأحوال المدنية، والخدمة العامة، ومنعت لبس الثوب الديني ما عدا خدام العبادة أثناء وظيفتهم، وأعلنت هذه الجمعية الأحوال الشخصية التي كانت فيها الأحكام الجديدة، وحكمت بأنّ الطلاق معتبرةٌ، وأن الأفراد لهم حقّ حرية الطلاق، وأن الزواج ليس إلا عقد مدني، وقررت الحكومة قرارَها الحاسمَ بفصل الكنيسة عن الدولة حين أعلنت بأنها لا تدفع أجر أي عبادة، ولا يعترف القانون بأيّ خادم، ويمنع كلّ مظهر عام، وإشارة خارجية. [70]

في القرن التاسع عشر راح العلم يحلّ محلّ الدين، وتتطور كدينٍ جديدٍ لأوروبيين، الذين قد علقوا آمالهم عليه، وعلى تطورّه لحلّ مشاكلهم، وتغلّب في العصر الحديثِ العقلُ على الإيمان، والفلسفةُ على اللاهوت، والعالمُ على رجال الدين شيئا فشيئا. وأصبح الدين مسألة شخصية بين الناس، ولم يبقى لرجال الكنيسة أيُّ سلطة دنيوية، فهذا الواقع الذي كانوا قد وقعوا فيه، أجبرهم إلى تجديد، وتحديث تراثهم الدينية، وتشكيل دين يتفق، ويتناسب مع عصر الحديث، ومع العلم والتقدم الذي غطّى الغربَ كلّه. [71]

أهم استنتاجات البحث

1. إن الديانة المسيحية كانت في قرونها الأولى قد اضطهدت كثيراً من قبل الإمبراطورية الرومانية الوثنية، لكن بسبب إخلاص رجالها من الأوليين قد انتشرت انتشارا سريعا إلى جميع أنحاء أوروبا.

2. إن المسيحية بعد القرن الرابع قد دخلت في العصور الوسطى التي استمرت حوالي ألف عام، وبدأت بتطور تعاليمها، وإنشاء الكنائس، والمعابد في مختلف البلاد الأوروبية، واستطاعت أن تربط الحياة الاجتماعية، والاقتصادية بكلّ تفاصيلها بنفسها، ورسخت في قلب كلّ أوروبي حيث كانت قد عرفت تلك العصور بعصر الإيمان.

3. إن كلّ أنظمة المجتمع من السياسة، والاقتصاد، والتعليم، والسلطات التشريعية، والقضائية كلّها كانت قد تشرّف عليها النظامُ البابوي، وإن السلطة التنفيذية للدولة كانت قد خضعت لها غيرَ مباشرة؛ لذا فإنها كانت تحكم إلى جانب الأمور الدينية على الأمور الدنيوية أيضاً.

4. إن الكنيسة قد بدأت تفقد هيمنتها بعد ظهور الحركة الإنسانية في عصر النهضة، واكتشاف الحقائق العلمية الجديدة، وتطور العلوم الفلكية، والرياضية، والطبيّة، والطبيعية وغيرها من العلوم التي قد أدت إلى تكذيب نظريات العلمية للكنيسة حول الإنسان، والحياة، والكون، والعالم كلّه.

5. إن الفلسفة الجديدة في القرن السابع عشر رأتْ دوراً هاماً في إضعاف المسيحية كدين سماوي، ومواجهتها بالانتقادات الشديدة، وإصرارهم على وجود التسامح الديني، وإعطاء الناس الحريةَ الدينية، التي تسبّبت إلى تطور العلمانية، والأديان الطبيعية، أو الوضعية، وأصبح الدين في عصر التنوير اجتهادات للفلاسفة، وصار مسألة فردية شخصية، وأمرا عاطفيا، لا علاقة له: لا برجال الدين، ولا بالدولة.

6. إن انتشار العلمانية في القرن التاسع عشر، وبروزَ مؤسسات الثقافية، والسياسة المبنية على الفكر العلماني دفع الحكومةَ إلى انفصال الدين عن الدولة، والفلسفة عن اللاهوت.

الهوامش:

[1]– الزيدي، مفيد. (2004). موسوعة تأريخ الأوروبا الحديث والمعاصر، العمان: دارأسامة للنشر ص. 138.

[2]– بيشوب، م. (1968). تأريخ أوروبا في العصور الوسطى، (ترجمة علي السيد علي). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ، 2005، ص. 163– 165.

[3]– يوسف، جزيف نسيم. (1984). تأريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، اسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع.، ص. 91–103.

[4]– رمضان، عبدالعظيم.(1997). تأريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، قاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص. 15–19 و. الزيدي، 2004، ص. 108.

[5]– صالح، هاشم (2005). مدخل الى تنوير الأوروبي، الطبعة الأولى، بيروت دار الطليعة، ص. 70،71.

[6]– الزيدي، 2004، ص. 8.

[7]– ديورانت، و. (1975) قصة الحضارة،المجلد الرابع، الجزء الخامس، (الترجمة د. زكي نجيب محمود). بيروت: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ص. 15،16.

[8]– نفس المصدر، المجلد الرابع، جزء5، ص. 22.

[9]– بيشوب، 2005، 168–178.

[10]– رمضان، 1997،116،117.

[11] – رمضان، ص. 53،54 ويوسف، 1984،ص.337.

[12](بيشوب، 2005 ص. 177.

[13]– الطويل، توفيق. (1947). قصة النزاع بين الدين والفلسفة، الجاميز– مصر: مكتبة الآداب،ص. 23،31.

[14]– بتول ج ، 2016. تأريخ علم الإجتماع، ترجمة غنيم عبدون ، 2016، ص.، 27، وصالح، 2005 ص.31،32.

[15]– عوض، لويس. (1987). ثورة الفكر في العصر النهضة الاوروبية، الطبعة الأولى، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص.282.

[16]– بدوي، عبدالرحمن. (1979). فلسفة العصور الوسطى، الطبعة الثالثة، بيروت: دار القلم، ص.2–6، وصالح، 2005، ص. 31 .

[17]– فرح، نعيم.(2000). الحضار الاوروبية في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، دمشق: منشورات جامعة دمشق، ص. 311–314، وبدوي، 1979، ص. 79–82.

[18]– الزيدي، 2004 ص. 179–181.

[19]– ديورانت، 1988، جزء5، 46 47.

[20]– عاشور، سعيد عبدالفتاح. (1976). تأريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص. 30 – 33. والزيدي، 2004 19–23.

[21]– عاشور، 1976، ص. 45–47. بيشوب، 2005، ص. 17،18.

[22]– عوض، 1987، ص.288.

[23]– الزيدي، 2004،ص. 286،287، وعاشور، 1976 ص. 49.

[24]– عاشور، 1976 ص. 311–315، فرح، 2000 ص. 194–197. يوسف، 1984 ص. 176– 178.

[25]– الزيدي، 2004 ص. 289.

[26]– فرح،2000،ص. 204،205.

[27]– صالح، 2005 ص. 75، 86.

[28]– بروتون، ج. (2006). عصر النهضة، (ترجمة ابراهيم البري محروس). مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص.39،40، ورمضان، 1997ص.52،53، صالح، 2005 ص.87–89.

[29]– صالح، ص.75.

[30]– صالح، 2005، ص.107،106. عوض، 1987 ص. 234.

[31]– صالح، 2005 ص،77.

[32]– صالح، 2005،ص. 67، حاطوم، نورالدين (1985). تأريخ عصر النهضة الاوروبية، دمشق: دراالفك.، ص. 82،80، بروتون،2014 ص 41.

[33]– بروتون،2014 ص،39–48.

[34]– صالح، 2005،ص. 78، د. نورالدين حاطوم، ص. 161.

[35]– رمضان، 1997ص. 65–74، الزيدي، 2004،ص. 406–410، و الوائي،عامر عبد زيد كاظم. (2018). الاصلاح الديني، الطبعة الاولى، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية.،ص. 2018، ص.37.

[36]– د. نوردين الحاطوم، ص. 58–162، و سكنر، ك. (1978). اسس الفكر السياسي الحديث عصر الاصلاح الديني، (ترجمة حيدر حاج اسماعيل). بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ص.52.

[37]– الوائي، 2018ص. 39.

[38]– هندريكس، س.(2010) مارتن لوثر(ترجمة كوثر محمود محمد) مصر:، مؤسسة هنداوي للعلم والثقافة ، ص.42.

[39]– سكنر،2012 ص. 19–23، والوائي، 2018ص. 83.

[40]– سكنر،2012 ص.28–30، الوائي، 2018ص. 73.

[41]– حاطوم، 1985ص. 167–170، والوائي، 2018ص.74.

[42]– فيبر، م. (1905). الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، (ترجمة محمد علي مقلد). بيروت: مركز الإنماء القومي،ص. 71–73،حاطوم، 1985، ص. 181–187.

[43]– رمضان، 1997، ص. 142.

[44]– أبودية، أيوب.(2011). علماء النهضة الأوروبية، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع . ص. 74–81.

[45]– الطويل،1947، ص.155–156.

[46]– عوض، 1987،ص.273–276.

[47]– عوض، 1987ص. 279،280. وأبودية، 2011، ص. 114،115.

[48]– عوض، 1987، ص. 280–286. وأبودية 2011، ص. 115،116.

[49]– الزيدي، 2004،ص. .545.

[50]– ابودية، 2011، 48، الزيدي، 2004، ص : 140–146.

[51]– عوض، 1987ص.90، الزيدي، 2004،ص.467. ابودية، 2011 ص.48–52.

[52]– هيرترود هيمفارب، ص. 9، الزيدي، 2004 ص. 481، 542.

[53]– صالح، 2005 132.

[54]– الزيدي، 2004،ص. 545.

[55]– سوبوك، ال.(1989). تأريخ الثورة الفرنسية (ترجمة جورج كويسي) بيروت – باريس: منشورات عويدات.، ص. 63–67.

[56]– الزيدي، 2004،ص. 548–552.

[57]– نفس المصدر، ص. 553–555.

[58]– صالح، 2005، ص. 147،148، و هيملفارب،هـ. (2004). الطرق الى الحداثة: التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي،(ترجمة محمود سيد أحمد)، الكويت: العالم المعرفة، الكويت ،ص.161.

[59]النشار، مصطفى. (1988) فلاسفة ايقظوالعالم،القاهرة: دار الثقافة والنشر للتوزيع، ص. 224،225.

[60]– ديكارت، ر. (1637 م، أ). مقال عن المنهج،(ترجمة محمود محمد الخضيري). الاسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص. 268.

[61]– ديكارت، ر. (1644 م، ب). مبادي الفلسفة، (ترجمة عثمان امين). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 1644،ب، ص.12،13.

[62]– الطويل، 1947، ص. 206–208.

[63]– النشار، 1988، ص. 239.

[64]– كريستون، أ. (1984). فولتير حياته وآثاره وفلسفته،(ترجمة صباح محي الدين).بيروت: منشورات عويدات، ص. 48،49.

[65]– النشار، 1988 ص. 269،270.

[66]– الزيدي، 2004، ص. 555.

[67]– صالح، 2005 ص. 132– 136.

[68]– أوترام، د. (2005). التنوير، (الترجمة ماجد موريس ابراهيم). بيروت: دارالفارابي ،ص. 100–192.

[69]– راشد، زينب عصمت. تأريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، القاهر: دارالفكر العربي، ص. 47.

[70]– صالح، 2005،ص. 556، وسوبوك، 19891989، ص. 564–566.

[71]– صالح، 2005 ص. 241،242.

المصادر والمراجع

أبودية، أيوب.(2011). علماء النهضة الأوروبية، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفارابي للنشر والتوزيع .

أوترام، د. (2005). التنوير، (الترجمة ماجد موريس ابراهيم). بيروت: دارالفارابي .

بدوي، عبدالرحمن. (1979). فلسفة العصور الوسطى، الطبعة الثالثة، بيروت: دار القلم..

بيشوب، م. (1968). تأريخ أوروبا في العصور الوسطى، (ترجمة علي السيد علي). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة .

بتول، ج. 2016، تأريخ علم الإجتماع، ترجمة غنيم عبدون.

حاطوم، نورالدين (1985). تأريخ عصر النهضة الاوروبية، دمشق: دراالفك.

ديكارت، ر. (1644 م، ب). مبادي الفلسفة، (ترجمة عثمان امين). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .

ديكارت، ر. (1637 م، أ). مقال عن المنهج،(ترجمة محمود محمد الخضيري). الاسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

ديورانت، و. (1975) قصة الحضارة،المجلد الرابع، الجزء الخامس، (الترجمة د. زكي نجيب محمود). بيروت: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

راشد، زينب عصمت. تأريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، القاهر: دارالفكر العربي.

رمضان، عبدالعظيم.(1997). تأريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، قاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
الزيدي، مفيد. (2004). موسوعة تأريخ الأوروبا الحديث والمعاصر، العمان: دارأسامة للنشر .
سكنر، ك. (1978). اسس الفكر السياسي الحديث عصر الاصلاح الديني، (ترجمة حيدر حاج اسماعيل). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
سوبوك، ال.(1989). تأريخ الثورة الفرنسية (ترجمة جورج كويسي) بيروت – باريس: منشورات عويدات.
صالح، هاشم (2005). مدخل الى تنوير الأوروبي، الطبعة الأولى، بيروت دار الطليعة .
الطويل، توفيق. (1947). قصة النزاع بين الدين والفلسفة، الجاميز – مصر: مكتبة الآداب.
عاشور، سعيد عبدالفتاح. (1976). تأريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
عوض، لويس. (1987). ثورة الفكر في العصر النهضة الاوروبية، الطبعة الأولى، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.
فرح، نعيم.(2000). الحضار الاوروبية في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، دمشق: منشورات جامعة دمشق.
فيبر، م. (1905). الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، (ترجمة محمد علي مقلد). بيروت: مركز الإنماء القومي.
كريستون، أ. (1984). فولتير حياته وآثاره وفلسفته،(ترجمة صباح محي الدين).بيروت: منشورات عويدات .
النشار، مصطفى. (1988) فلاسفة ايقظوالعالم،القاهرة: دار الثقافة والنشر للتوزيع .
هندريكس، س.(2010) مارتن لوثر(ترجمة كوثر محمود محمد) مصر:، مؤسسة هنداوي للعلم والثقافة .
هيملفارب،هـ. (2004). الطرق الى الحداثة: التنوير البريطاني والتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي،(ترجمة محمود سيد أحمد)، الكويت: العالم المعرفة، الكويت.
الوائي،عامر عبد زيد كاظم. (2018). الاصلاح الديني، الطبعة الاولى، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية.
يوسف، جزيف نسيم. (1984). تأريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، اسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع.